

المسيحية والسيف

وتشائق إبادة هُنود القارة الأميركية
على أيدي المسيحيين الإشبان
رواية شاهد عيان

تأليف: المطران برتولومي ديت لاس كازاس
ترجمة: سميرة عنزي الزين

المسيحة والسيف

من أجل الحقيقة (٢)

المسيحية والسيف

وثائق إبادة هُنودِ القارة الأمريكية
على أيدي المسيحيين الإسبان

رواية شاهد عيان

تأليف: المطران برتولومي دي لاس كازاس

ترجمة: سميرة عزمي الزين

منشورات المعهد الدولي للدراسات الانسانية

مَقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقول المؤرخ الفرنسي الشهير «مارسيل باتيون» أن مؤلف كتابنا «برتولومي دي لاس كازاس» أهم شخصية في تاريخ القارة الأمريكية بعد مكتشفها «كريستوف كولومبوس»، وأنه ربما كان الشخصية التاريخية الوحيدة التي تستأهل الاهتمام في عصر اجتياح المسيحيين الإسبان لهذه البلاد.

لولا هذا المطران الكاهن الثائر على مسيحية عصره وما ارتكبه من فظائع ومذابح في القارة الأمريكية لضاع جزء كبير من تاريخ البشرية. فإذا كان كولومبوس قد اكتشف لنا القارة، فإن برتولومي هو الشاهد الوحيد الباقي على أنه كانت في هذه القارة عشرات الملايين من البشر الذين أفنهم الغزاة بوحشية لا يستطيع أن يقف أمامها إلا مستنكراً لها، شاكاً في إنسانية البشر الذين ارتكبوها، متوجساً خائفاً من تكرار بعض مشاهدتها في عالم صارت فيه السكين أبلغ الواعظين، وأتقى الأتقياء وسلطان الحجج والبراهين.

وُلد «برتولومي دي لاس كازاس» عام ١٤٧٤ م في قشتالة الإسبانية، من أسرة اشتهرت بالتجارة البحرية. وكان والده قد رافق «كولومبوس» في رحلته الثانية إلى العالم الجديد عام ١٤٩٣م، أي في

السنة التالية لسقوط غرناطة وسقوط الأقفعة عن وجه الملوك الإسبان والكنيسة الغربية . كذلك فقد عاد أبوه مع « كولومبوس » بصحبة عبد « هندي » ، فتعرّف « برتولومي » على هذا العبد القادم من بلاد الهند الجديدة . بذلك بدأت قصته مع بلاد الهند وأهلها وهو ما يزال صبيّاً في قشتالة يُشاهد ما يرتكبه الإسبان من فظائع بالمسلمين ، وما يريقونه من دمهم وإنسانيتهم قبل أن يراهم يسفكون دم الهنود وإنسانيتهم في العالم الجديد . لقد جرى الدّميان بالخير اليقين أمام عيني هذا الراهب الشائر على أخلاق أمته ورجال كنيستها ، وبعثات تبشيرها : دم المسلمين ودم الهنود ، سكان القارة الأميركية .

وبعد أن أنهى لاس كازاس دراسة اللاهوت أبحر إلى جزيرة « سان دومينغو » (وكان يُطلق عليها في ذلك الزمان اسم الجزيرة الإسبانية) عام ١٥٠٢ . ثم عُيّن كاهناً في عام ١٥١٣ . وكان بذلك أول راهب إسباني يعين رسمياً في بلاد الهند الغربية التي اجتاحتها الإسبان .

وكانت هذه البلاد قد سميت ببلاد الهند ، وسُمي أهلها بالهنود لأن « كريستوف كولومبوس » حين وصل إلى القارة الأميركية ، ظنها شبه الجزيرة الهندية ، ولم يصدق في البداية أنه قد اكتشف للعالم قارة جديدة . بذلك سميت تلك القارة ببلاد الهند ، وسُمي أهلها بالهنود ، أو ما يُعرف عند العامة بالهنود الحمر .

وكان ملك إسبانيا قد أقطعه مستعمرة عاش فيها ، وأعطاه سلطة مطلقة تضمن حق الحكم بالحياة والموت على أي هندي ، كما أقطع معظم الإسبان الغزاة تلك الأراضي التي لا يملكها ، ومنحهم تلك

الحقوق التي أدت إلى إفناء الملايين من الأبرياء .

وعاش « لاس كازاس » فترة في « سان دومينغو » ، ثم انتقل إلى كوبا . وما لبث أن قرف واشمأز من وحشية الغزاة بعد أن شاهد بعينه المذابح الدموية التي ارتكبتها المسيحيون في جزيرة كوبا ، ووصفها لنا وصفاً مذهلاً في كتابه الآخر « تاريخ الهنود » . وكانت نقطة التحول في حياة ذلك الراهب الذي صار ملعوناً من أبناء أمته الإسبان ومكروهاً من كنيسته واخوانه الرهبان . أما الملوك الإسبان فكانوا يمعنون في غيهم كلما أمعن في النصح لهم ، وأما اخوانه الرهبان فكانوا كما وصفهم أحد الزعماء الهنود لا يعبدون إلا الذهب . ولقد وصفهم « لاس كازاس » بقوله :

« كانوا يسمون المجازر عقاباً وتأديباً لبسط الهيبة وترويع الناس . كانت هذه سياسة الإجتياح المسيحي : أول ما يفعلونه عندما يدخلون قرية أو مدينة هو ارتكاب مجزرة مخيفة فيها . . مجزرة ترتجف منها أوصال هذه النعاج المرهفة » .

لقد تعرى « لاس كازاس » من كل شيء . ولم يبق منه إلا الإنسان . فما رآته عيناه لم يره أحد من العالمين . كان الإسبان الذين معه ، رهباناً وطغاة ، لا يرون في دم قتلاهم إلا الذهب الذي يسرقونه . أما « لاس كازاس » فلم يبق له من إسبانيته إلا الخجل والعار ومن مسيحيته إلا الحمية والمرارة . وكان في شهادته التاريخية النادرة على إبادة سكان القارة الأميركية وحيداً فريداً . كان إنساناً ، لا إسبانياً ولا مسيحياً . ومع ذلك فإن أحداً لا يستطيع أن يتهمه في دمه الإسباني ، أو في دينه المسيحي .

وهذا أعظم ما في شهادة « لاس كازاس » على وحشية قومه
المسيحيين .

كان يتحدث عن الإسبان ويقصد المسيحيين ، ويتحدث عن
المسيحيين ويقصد الإسبان . وكان يشكو ويتألم من القتل الطغاة ومن
التبشير والمبشرين . وإنه كثيراً ما كان يصف لك القاتل والمبشر في
مشهد واحد فلا تعرف ممن تحزن : أمن مشهد القاتل وهو يذبح
ضحيته أو يحرقها أو يطعمها للكلاب ، أم من مشهد المبشر الذي تراه
خائفاً من أن تلفظ الضحية أنفاسها قبل أن يتكرم عليها بالعماد ،
فيركض إليها لاهثاً يجرجر أذيال جبّته وغلاظته وثقل دمه لينصّها بعد
أن نضح جسدها بالنار أو اغتسلت بدمها ، أو التهمت الكلاب نصف
أعضائها وأحشائها .

ونقل إلينا صوراً ساخرة عن طريقة التبشير حين كانت الحملة
تصل إلى المدن والقرى الهندية بعد منتصف الليل ، وكانت تعلن على
الهندو باللغة الإسبانية التي لا يفهمها أحد :

« يا سكان القرية (أو المدينة) إننا نعلمكم بوجود إله ، ووجود
« بابا » ووجود ملك قشتالة سيد هذه الأراضي ، فاحرجوا واعلنوا
الطاعة ، وإلا فإننا سنحاربكم ونقتلكم » .

وكان الفجر ينبج عن حمّام الدم وأفق الضحايا البريئة . « كانوا
ينصبون المشانق في مجموعات . كل مجموعة ثلاثة عشر مشنوقاً ، من
أجل تكريم وتبجيل السيد المسيح وحوارييه الإثني عشر ! وكما قال
لاس كازاس عن الإسبان : « لقد قتل المسيحيون كل هذه الأنفس
البريئة ، وفتكوا كل ذلك الفتك باسم الدين . . وكم من جرائم

ارتكبوها باسم التبشير» . . « لقد ظل الإسبان طوال هذه السنين يكتبون ويزعمون أن الله أرسلهم لفتح هذه البلاد التي كانت آمنة مطمئنة ، وأن الله هو الذي نصرهم على هذه الأمم . كانوا يحمدون الله في صلواتهم ويشكرونه لأنه أعطاهم كل هذه الخيرات ، ولأنهم قاموا بكل هذا الطغيان » .

ولم يكن « لاس كازاس » مبالغاً في وصفه ، بل كان يعتذر من عجزه عن وصف كل ما جرى . ويعتقد أنه ليس هنالك من يستطيع أن يسرد ما حصل فعلاً . إن العقل الجسور والخيال الجموح ليعجزان عن الفهم والإحاطة ، فإبادة عشرات الملايين من البشر في فترة لا تتجاوز الخمسين سنة هول لم تأتِ به كوارث الطبيعة . ثم إن كوارث الطبيعة تقتل بطريقة واحدة . أما المسيحيون الإسبان فكانوا يتفننون ويتدعون ويتسلّون بعذاب البشر وقتلهم . كانوا يجرون الرضيع من بين يدي أمه ويلوِّحون به في الهواء ، ثم يخبطون رأسه بالصخر أو بجذوع الشجر ، أو يقذفون به إلى أبعد ما يستطيعون . وإذا جاءت كلابهم قطعوا لها أطراف أول طفل هندي يلقونه ، ورموه إلى أشداقها ، ثم اتبعوها بباقي الجسد . وإن المرء لا يستطيع أن يصدق أن الإسبان المسيحيين الذين جاؤوا إلى العالم الجديد ليبشروا بدين « المحبة » كما يزعمون كانوا يقتلون الطفل ويشوونه من أجل أن يأكلوا لحم كفيه وقدميه قائلين : إنها أشهى لحم الإنسان .

لم يكونوا يقتلون بل يتلذذون بالقتل ، ولم يكونوا يعذبون ويبطشون ، بل كانوا يستمتعون ويطربون لمشهد العذاب والبطش . ولقد اخترعوا في فن التعذيب ما يضاهي اختراعاتهم في فنون القتل . وسأترك للقارئ أن يعرف ذلك من شهادات المؤلف التي تركها لنا في

هذا الكتاب النادر . إنها شهادات هزت أعماق الكثيرين من أبناء أوروبا وأميركا حين نُشرت ، وتركتهم يعيدون النظر في تاريخهم وأخلاقهم وديانتهم المسيحية ، شهادات على إبادة أمة من عشرات الملايين من البشر ، أو على ما يسميه « لاس كازاس » بدمار بلاد الهند .

كانت القرارات البابوية هي التي منحت ملوك اسبانيا حق امتلاك الأراضي ما وراء البحار . وكان هذا الحق يعني ، كما تحدث عنه مؤلف كتابنا : نهب البلاد وإفناء العباد . وكانت القرارات البابوية تقضي بأن يكون التبشير أولاً ، والاستعمار ثانياً ، أي أن يكون للرهبان أولوية على العسكر الغزاة ، وأن تكون الغنائم للكنيسة كما الدولة . واكتشف الرهبان أن العسكر قد تولوا أمر التبشير بأنفسهم وعلى طريقتهم ، وأن ذهب العالم الجديد قد « طار » من يد الكنيسة . ولم يبقَ أمام الرهبان إلا الشكوى . ويصف لنا « لاس كازاس » بعض الرهبان يلهثون وراء الذهب ، ويحدثنا عن رئيس المطارنة الذي كان يرسل خدمه ليأتوه بحصته منه . لقد كانوا جميعاً متفقيين على سرقة البلاد ، عسكراً ورهباناً . هؤلاء يريدون الذهب بتعذيب الأجساد وقتلها ، وأولئك يريدونه بتعذيب الأرواح وقتلها . وكانوا جميعاً يشهرون سيف المسيح ، والمسيح عليه السلام براء منهم ومن أعمالهم وأخلاقهم .

رأى « لاس كازاس » كل ذلك بعينه ، وأرسل الرسائل المتعددة إلى ملك إسبانيا يستعطفه ويسترحه ويطالبه بوقف عذاب هؤلاء البشر . وكانت آذان الملك الإسباني لا تسمع إلا رنين الذهب . ولماذا يشفق الملك على بشر تفصله عنهم آلاف الأميال من بحر الظلمات ما

دامت جرائم عسكره ورهبانه في داخل إسبانيا لا تقل فظاعة عن جرائم عسكره ورهبانه في العالم الجديد ؟ كان الإسبان ، باسم الدين المسيحي الذي يبرأ منه المسيح عليه السلام ، يسفكون دم الأندلسيين الذين ألقوا سلاحهم ، وتجردوا من وسائل الدفاع عن حياتهم وحرمتهم . وكان تنكيلهم بهم لا يقل وحشية عن تنكيلهم بهنود العالم الجديد . لقد ظلوا يسومون المسلمين أنواع التعذيب والتنكيل والقهر والفتك طوال مائة سنة فلم يبق من الملايين الثلاثين مسلم واحد ، كما ساموا الهنود تعذيباً وفتكاً واستأصلوهم من الوجود .

كانت محاكم التفتيش التي تطارد المسلمين وفتك بهم ، ورجال التبشير الذين يطاردون الهنود ويفتكون بهم من طينة واحدة تدل على ما وصلت إليه قلوب أولئك المزعومين على المسيح عليه السلام من غلظة وقسوة ووحشية .

وواضح من وصف المؤلف أن الهنود الذين أبادهم الإسبان كانوا من أكثر شعوب ذلك الزمان براءة وطيبة ، وقد كان هذا مقتلهم . فكلما سمعوا بوصول الإسبان إليهم خرجوا إليهم مرحبين يحملون إليهم الهدايا . وكان الإسبان دائماً يأخذون منهم الهدايا ويقتلونهم على الفور ، أو يدعونهم إلى سفنهم ليجروا بهم ويبيعوهم عبيداً . وكان هذا « السيناريو » يتكرر في معظم القرى والمدن الهندية .. ومع ذلك ظل الهنود لا يصدقون أن بإمكان هؤلاء أن يقتلوهم ، ولم يعرفوا لماذا يقتلونهم . وقد قال عنهم « لاس كازاس » : « إن هذه الشعوب أسعد أهل الأرض ، وإن بلادهم أسلم بلاد الله وأكثرها طمأنينة . . . إنها شعوب رضية لا تعرف الشر ، طيبة بالغة الوفاء ، بل إنها أكثر الشعوب تواضعاً وصبراً ومسالمة وسكينة . إنها لا تعرف الضغينة ولا

الصخب ولا العنف والخصام . شعوب تجهل الحقد وسوء الطوية ،
وتعف عن الثأر والانتقام . شعوب مرهفة ناحلة هزيلة لا تطيق
أجسادها الرهق ، وسرعان ما يهلكها المرض . . . ولقد غشي الإسبان
هذه الخراف الوديعة غشيان الذئاب والنمور والأسود الوحشية التي لم
تجد طعاماً أياماً وأياماً . . . » .

ألا ترى أنهم فتكوا بهم كما فتكوا بنا فأصابوهم وأصابونا في مقتل
واحد . ألا ترى أن الحروب الصليبية لم تتوقف عن حملاتها المعلنة إلا
بعد أن اكتشف الغربيون ما يطفئ عطشهم إلى الذهب والدم في
القارة الأميركية . ألا ترى أن هذه الحملات لم تعد إلى بلادنا بصورتها
الجديدة إلا يوم استنفذ الغربيون أغراضهم من القارة الأميركية
فجعلوها لهم أرضاً وتاريخاً وديناً ، كما كانوا يريدون لبلادنا أن تكون
لهم أرضاً وتاريخاً وديناً . وما زالوا يريدون . وأنها سيرة تتكرر هنا
وهناك . . . سيرة البندقية والتوراة التي تروى هنا لأول مرة لقراء العربية
فتسد فراغاً كبيراً حول أصل هذه الإبادات وأخلاق أهلها وجنسهم
ودينهم .

في عام ١٥١٤ قرر « لاس كازاس » أن يضع قانوناً للإصلاح ،
وأن يقنع ملك إسبانيا فرديناند العجوز بضرورة تنفيذه ، محاولاً التوفيق
بين مصلحة الخزينة الإسبانية وبين إنقاذ الهنود من الإبادة ، غير أن
فرديناند توفي وخلفه « شارل كانت » الذي لم يقبل بإعادة النظر في
الإجتياح الإسباني ، بل إنه خطط لاستعمار ما تبقى من القارة ، وبعث
بالقائد الشهير « كورتيس » لغزو المكسيك وبيزارو والبيرو . وفي عام
١٥٢٠ أبحر « لاس كازاس » إلى منطقة كوماننا على الساحل
الفينزويلي ، وكان شاهداً على الحرق والقتل والدمار الذي ارتكبه

المسيحيون الإسبان في فنزويلا ، كما شاهد الهنود وهم يثورون لأول مرة على هذه المذابح والفظائع ، وكيف أن الإمبراطور الإسباني أرسل حملات تأديب تميزت بوحشيتها الشديدة ، وارتكبت مزيداً من المذابح . بل إن أتباع « لاس كازاس » من الرهبان اشتركوا فيها واستشروا .

وكان هذا الفشل المر منعظاً حاسماً في حياة هذا الكاهن الثائر فتخلى عن كل أملاكه ، وأقلع عن التعاون مع الاسبان نهائياً ، وانصرف إلى الدراسة والبحث . وكتب رسالته الشهيرة إلى المجلس الإسباني عام ١٥٣١ م قائلاً فيها :

لقد قال السيد المسيح : « هأنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب » ، فلماذا يا سادتي ترسلون الذئاب الجائعة المتوحشة التي تذبح وتهلك النعاج ؟ .

وأحرز « لاس كازاس » شيئاً من النصر في عام ١٥٤٠ حين منحه حاكم غواتيمالا الإسباني منطقة « حراما » أوكل إليه أمر تحويلها إلى أرض سلام . . . غير أن موجة التهديد والعدوان ثارت عليه في كل الامبراطورية الإسبانية فأخفقت التجربة ، لكنه لم ييأس ، بل توجه إلى مدريد وواجه الإمبراطور ، وأقنعه بوضع قوانين الإصلاح الداعية إلى إلغاء عبودية الهنود وإبادتهم ، وهي القوانين التي لم تنفذ أبداً ، ثم طويت في أدراج النسيان .

وعاد إلى المكسيك عام ١٥٤٤ ، ولم يبقَ فيها أكثر من عامين زهق فيها من عنت المستعمرين الغزاة ومظالمهم . وحين طالب بتدخل القضاء ضحك منه القضاء وتخلوا عنه كما تخلى عنه أعضاء أسقفية .

ثم تعرض للسباب والشتائم والإهانات من إسبانيا ومن البلاد المغزوة . . وكلها يجمع على أنه عدو لإسبانيا .

وكانت نهاية التجربة المرة التي عاد بعدها إلى إسبانيا ، وأمضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته في عزلة كاملة يؤلف ويرد على التهم التي توجه إليه .

وبعد ، فهذا هو الكتاب الثاني من سلسلة « من أجل الحقيقة » ، بعد كتاب « المسيح الدجال » للفيلسوف نيتشه . وإنه ليُنشر لأول مرة بالعربية لإضاءة هذا الجانب المظلم من الإجتياحات المسيحية .

إن أحداً لا يعلم كم عدد الهنود الذين أبادهم الغزاة الإسبان . ثمة من يقول إنهم مائتا مليون ، ومنهم من يقول إنهم أكثر . أما لاس كازاس فيعتقد أنهم مليار من البشر . ومهما كان الرقم فقد كانت تنبض بحياتهم قارة أكبر من أوروبا بسبعة عشر مرة ، وها قد صاروا الآن أترأ بعد عين .

الناشر

مقدمة المؤلف

من المطران برتولومي دي لاس كازاس إلى سمو أمير بلاد إسبانيا المعظم مولانا دون فيليب

... إنني أريد أن أحدثكم يا سمو مولاي عن الشرور والآثام ،
وعن الدمار والخراب في هذه الممالك الكبيرة ، أقصد هذا العالم الجديد
الشاسع المسمى ببلاد الهند [الحمراء] التي وهبها الله للملوك قشتالة
وأناطها بهم ليسوسوها ويصلحوا أمرها ويهدوا أهلها إلى المسيحية
فينعموا عليها بأمل الدنيا والآخرة .

وإن المرء لا يستطيع أن يتخيل أبداً أن في قدرة البشر أن يقوموا
بمثل هذا التخريب . لقد عشت في بلاد هذه الشعوب الهندية أكثر من
خمسین عاماً وشاهدت بأم عيني ما ارتكبه من فظاعات وجور . ولو
أن سموكم علم بالنزر اليسير من هذه الفظائع لتوسل إلى جلالتها أن
تمنع الطغاة من طغيانهم باسم الفتوحات . إن كل سماح باستمرار
الفتوحات يعني سهاحاً بتكرار الفظاعات . فما تلقاه الشعوب الهندية
المسالمة المتواضعة المرهفة ليس إلا طغياناً وجوراً يدينهما كل قانون ،
وضعياً كان أم إلهياً . إنها أفعال مردولة ملعونة ، ولهذا عذمت على أن
أبريء ساحتي من هذه الجريمة بأن لا أسكت عنها ، وأن أحدثكم عما
جناه الطغاة وعما أزهقوه من أرواح وأذوه من أجساد . عذمت على أن
أكتب عن النزر اليسير منها لأنني عاجز في الحقيقة عن أن أكتب عنها

كلها . ولقد أردت أن أوجز لأجعل أمر قراءتها يسيراً على سموكم .

وكان رئيس أساقفة طليطلة قد طلب مني رواية هذه الأحداث ،
وقدمها إلى سموكم ، ولعلكم لم تطلعوا عليها ، أو لربما نسيتموها في
غمرة مشاغلكم الملكية المتعددة ، أو أسفاركم الطويلة في البر والبحر .

ثمة استهتار وطيش يتعاضدان في أنفس هؤلاء الذين يسفكون كل
هذه الدماء ، ويستأصلون هذه الأراضي الشاسعة من أهلها وأصحابها
بقتل مليار من البشر ، وينهب الكنوز التي لا تقدر بأثمان . إنهم
يحتالون بأساليب مختلفة من أجل أن تسمحوا لهم بالضي في الفتوح
التي لا يمكن السماح بها من غير الاعتداء على حرمة الله ، واختراق
القوانين الطبيعية ، ومن غير اقرار الخطايا المنكرة التي تستأهل
العذاب الشديد .

لهذا رأيت لزاماً عليّ أن أقدم لسموكم رواية شديدة الإيجاز
لتاريخ طويل من الأذى والدمار . ولا بد من كتابة هذا التاريخ ذات
يوم . إنني أتوسل إلى سموكم أن تقرأوا هذا الكتاب وأن تولوه
بالعطف والرعاية اللتين تولونها رعيتكم الوفية . وإنني أتمنى عليكم أن
تسترحموا جلالتها وتقنعوها بوقف هذه الفتوح الشنيعة ، وذلك بعد أن
تقرأوا هذه الرواية الموجزة وتصيروا على علم بوحشية الظلم المستفحش
بهذه الكائنات البريئة التي تمثل بها ونقطعها إرباً إرباً من أجل الجشع
والطمع ليس إلا . إنني أسترحمكم أن تقنعوا جلالتها بوقف الفتوحات
والتخويف من استمرارها تخويفاً لا يجرؤ بعد ذلك أحد على طلب
الإذن بها . إن ذلك يا مولاي المبجل أمر جليل لا بد منه إذا كنا نريد
أن يوفق الله مملكة قشتالة ويسبغ عليها السعادة والرخاء . . آمين .

رواية موجزة جداً
لدمار بلاد الهند

اكتشفت بلاد الهنود [الحمر] سنة ١٤٠٢ ، ثم استوطنها الاسبان في السنة التي تلتها ، وتدفقت عليها جموع كبيرة منهم على مدى تسعة وأربعين عاماً . أما أول أرض دخلوها فهي التي تُسمى بالجزيرة الإسبانية السعيدة الواسعة التي يبلغ محيطها ستمائة فرسخ والتي تطوقها جزائر أخرى متعددة واسعة . ولقد رأيناها جميعاً مكتظة بالسكان من الهنود الحمر كأي أرضٍ أخرى مأهولة في العالم .

وكان أقرب مكان إلى اليابسة يبعد عن الجزيرة ٢٥٠ فرسخاً . ولهذا اليابسة عشرة آلاف فرسخ من الساحل المعروف . وفي كل يوم تُكتشف مساحة إضافية . كل هذه الأراضي التي تم اكتشافها حتى عام ١٥٤١ كانت تعج بالحياة والبشر كأنها خلايا النحل ، حتى ليخيل إلى المرء أن الله أحل فيها أكبر عدد ممكن من البشر .

خلق الله هذه الشعوب الغفيرة رضية لا تعرف الشر والرياء . إنها شعوب طيبة بالغة الوفاء لأسيادها الطبيعيين وللمسيحيين الذين تخدمهم ، بل إنها أكثر الشعوب تواضعاً وصبراً ومسألماً وسكينة . إنها

لا تعرف الضغينة ولا الصخب والعنف والخصام . شعوب تجهل الحقد وسوء الطوية ، وتعف عن الثأر والانتقام . شعوب مرهفة رقيقة الحاشية ناحلة هزيلة لا تطيق أجسادها الرهق ، وسرعان ما يهلكها المرض مهما كان . إن أبناء أمرائنا ونبلائنا الذين ترعرعوا في ظل الرفاه والرخاء وخضرة الحياة أقوى عوداً منها ، بل أشد بأساً من فلاحيتها . شعوب فقيرة لا تملك الوفرة بل تعف عن متاع الدنيا . لهذا لا تعرف الكبر والجشع والطموح . وليس طعامها بأحسن أو أكثر أو أتعس من طعام الرهبان في الصحارى . وتراهم عراة يمشون لا يسترون إلا عوراتهم . ويغطون أجسادهم بغطاء من القطن . يفترشون الحصير ، وينامون في ما يشبه الشبكة المعلقة .

إن لهم ذهنًا ثاقباً شديد الوضوح . وهم أذكىاء منفتحون لكل عقيدة صالحة وتراهم يلحون على معرفة الشاردة والواردة . إن كثيراً من الإسبان - غير الكهنة - يعترفون بأنهم لا يستطيعون أن ينكروا طيبة أنفسهم وحميد خصالهم . ولربما كانت هذه الشعوب أسعد أهل الأرض لو أنها عرفت الله .

لقد غشي الإسبان هذه الخراف الوديعة غشيان الذئاب والنمور والأسود الوحشية التي لم تجد طعامها أياماً وأياماً . ومنذ أربعين سنة وهم يقطعون أوصالها ويقتلوننا ويروعونها ، ومنذ أربعين سنة وهم يفتكون بها ويعذبونها ويبيدونها . كل يوم فظاعة جديدة غريبة مختلفة لم نسمع ولم نقرأ عن مثلها من قبل . ولسوف أتحدث عنها لاحقاً . كانت هذه الفظائع شديدة لم تبق في الجزيرة الإسبانية اليوم سوى مائتي هندي من أصل ثلاثة ملايين .

إن جزيرة كوبا التي تبلغ مساحتها ما يفصل روما عن « فاللادوليد » خاوية على عروشها لم يبق من أهلها ديار . أما جزيرتا سان خوان وجامايكا الأمتان المطمئنتان فجزيرتان سعيدتان كبيرتان ولكن أفقر من أهلة ملحوب . وهناك ستون جزيرة مثلها على تلك الحال . إن أشبع جزيرة فيها أكثر خصباً وأبهى جمالاً من حدائق ملك اشبيلية . كانت أسلم بلاد الله وأكثرها أمناً وطمأنينة وكان يسكنها نصف مليون من البشر لم يبق منهم اليوم أحد ، فقد أفنى الإسبان أهلها وهم يطردونهم إلى الجزيرة الإسبانية التي أُبِيد سكانها . لقد جاب مركب إسباني وطاف على هذه الجزر ثلاثة أيام بحثاً عن لعله نجا من أهلها بعد « الحصاد » ، فلم يعثر على غير أحد عشر ناجياً . وهناك أكثر من ثلاثين جزيرة مجاورة لسان خوان كلها أقفرت وأفنى أهلها . . .

أما على اليابسة فإننا على يقين من أن رجالنا الإسبان قد اجتاحوا ونهبوا أراضي كانت عامرة بأهلها الطيبين فصارت اليوم صحراء . لقد نهبوا أكثر من عشر ممالك أكبر من كل إسبانيا وأراغون والبرتغال مجتمعة ، وتبلغ مساحتها ضعف ما بين اشبيلية والقدس ، أي أكثر من ألفي فرسخ . وطوال هذه السنوات الأربعين أُبِيد أكثر من اثني عشر مليوناً من الرجال والنساء والأطفال ظلماً وعدواناً جراء طغيان المسيحيين وأعمالهم الجهنمية . هذا رقم مؤكد على الرغم من أنني أعتقد ، مطمئناً إلى اعتقادي ، أن عدد الضحايا يتجاوز خمسة عشر مليوناً .

إن الذين ذهبوا إلى هناك من أدياء المسيحية أبادوا الشعوب الهندية الوادعة ومحووا ذكرها من وجه الأرض ، إما بالاجتياحات

الدموية المتوحشة ، وأما باستعباد من تبقى استعباداً فظاً غليظاً شنيعاً لم يشهد مثله البشر ولم تعرفه الدواب . أما من كان يحلم بالحرية أو يفكر فيها أو يحاول الخلاص من عذاباته كما يفعل ذلك كل إنسان فمصيره القتل . عدّ من ذلك إلى أنواع منوعة من الجور والطغيان الجهنمي والتخريب .

قتل المسيحيون كل هذه الأنفس البهية وفتكوا كل ذلك الفتك باسم الدين ليحصلوا على الذهب ويكتنزوا الثروات ويصلوا إلى مراكز أكبر من أشخاصهم . إن جشعهم وتناول شهواتهم الجائعة أودى بهم إلى احتقار هذه الشعوب المتواضعة الحاملة الودودة ونهب ثروات هذه الأراضي الخصبة البهيجة . (إنني أقول الحقيقة لأنني شاهدها بأمر عيني) . كان المسيحيون ينظرون إلى الهنود الحمر لا كما ينظرون إلى الحيوانات (ويا ليتهم اعتبروهم حيوانات) بل أقل قدراً من الدواب وأحط شأناً من الزبل .

هكذا كانت حياة هؤلاء الناس وأرواحهم [في أعين الإسبان] ، ولهذا مات منهم العدد الغفير قبل أن يعرفوا حلاوة الإيمان ومن غير أن يتذوقوا القربان المقدس . ثمة حقيقة مؤكدة أجمع عليها الإسبان بطغاتهم ومجرميهم وهي أن الهنود في كل تلك البلاد لم يمسا مسيحياً بسوء . وكان الهنود في البداية يظنون أن المسيحيين قد نزلوا عليهم من السماء . كان ذلك إلى أن عذبهم المسيحيون ونهبوهم وفتكوا بهم ونكبوهم مراراً وتكراراً .

عن الجزيرة الإسبانية

أسلفنا أن الجزيرة الإسبانية كانت أول بقعة اجتاحتها المسيحيون وابتدأوا منها بالتخريب وحملة الفتك الكبيرة بهذه الشعوب . كانت أول جزيرة عاثوا بها وأبادوا سكانها . في البدء سبوا النساء والأطفال ليستخدموهم كما يشاؤون ، ثم راحوا يسرقون طعامهم فلم يكتفوا بما كان الهنود يقدمونه لهم عن رضا ونفس طيبة سخية . كان كل هندي يعطي ما وسعه العطاء برغم شح مورده وضيق ما بين يديه وما ينتجه بجهد المتواضع . فما كان يكفي ثلاث أسر هندية ، كل أسرة من عشر أنفس ، ولمدة شهر ، يلتهمه المسيحي أو يفسده في يوم واحد . وحين رأى الهنود كل هذا العنف والتفطيع بدأوا يعرفون أن هؤلاء الرجال لم ينزلوا من السماء ، وصار بعضهم يخبىء طعامه أو يهرب من هؤلاء البشر القساة ويختفي في الغابات . كان المسيحيون يطاردونهم ويختطفون أسياد القرى . وقد بلغ بهم الطيش والتراذل أن اغتصب قبطان مسيحي امرأة حاكم الجزيرة وامرأة أشهر نبلائها . آنذاك راح الهنود الحمر يبحثون عن وسائل لطرد المسيحيين ، وحملوا السلاح . ولكنه كان سلاحاً ضعيفاً غير هجومي ، بل كان أعجز عن المقاومة والدفاع . لذلك كانت حروبهم أشبه بألعاب الصبيان .

أما المسيحيون فعاقبوهم بمذابيح لم تُعرف في تاريخ الشعوب . كانوا يدخلون على القرى فلا يتركون طفلاً أو حاملاً أو امرأة تلد إلا ويبقرون بطونهم ويقطعون أوصالهم كما يقطعون الخراف في الحظيرة . وكانوا يراهنون على من يشق رجلاً بطعنة سكين ، أو يقطع رأسه أو يدلّق أحشاءه بضربة سيف . كانوا ينتزعون الرضّع من أمهاتهم ويمسكونهم من أقدامهم ويرطمون رؤوسهم بالصخور ، أو يلقون بهم في الأنهار ضاحكين ساخرين . وحين يسقط في الماء يقولون : « عجباً إنه يختلج » . كانوا يسفّدون الطفل وأمه بالسيف [كما تسفّد قطع اللحم بالسفود] ، وينصبون مشانق طويلة ، ينظمونها مجموعة مجموعة ، كل مجموعة ثلاثة عشر مشنوقاً ، ثم يشعلون النار ويحرقونهم أحياء . وهناك من كان يربط الأجساد بالقش اليابس ويشعل فيها النار : هكذا أحرقوا الهنود الحمر وهم أحياء .

كانت فنون التعذيب لديهم أنواعاً متنوعة . بعضهم كان يلتقط الأحياء فيقطع أيديهم قطعاً ناقصاً لتبدو كأنها معلقة بأجسادهم ، ثم يقول لهم : « هيا احملا الرسائل » ، أي : هيا أذيعوا الخبر بين أولئك الذين هربوا إلى الغابات . أما أسياد الهنود ونبلاؤهم فكانوا يقتلون بأن تصنع لهم مشواة من القضبان يضعون فوقها المذراة ، ثم يربط هؤلاء المساكين بها ، وتوقد تحتهم نار هادئة من أجل أن يحتضروا ببطء وسط العذاب والألم والأنين .

ولقد شاهدت مرة أربعة من هؤلاء الأسياد فوق المشواة . وبما أنهم يصرخون صراخاً شديداً أزعج مفوض الشرطة الإسبانية الذي كان نائماً (أعرف اسمه ، بل أعرف أسرته في قشتالة) فقد وضعوا في حلقهم قطعاً من الخشب أحرستهم ، ثم أضرموا النار الهادئة

تحتهم . رأيت ذلك بنفسي ، ورأيت فظائع ارتكبتها المسيحيون أبشع منها . أما الذين هربوا إلى الغابات وذرى الجبال بعيداً عن هذه الوحوش البشرية الضارية فقد روض لهم المسيحيون كلاباً سلوقية شرسة لحقت بهم ، وكانت كلما رأّت واحداً منهم انقضت عليه ومزقته وافترسته كما تفترس الخنزير . وحين كان الهنود يقتلون مسيحياً دفاعاً عن أنفسهم كان المسيحيون يبيلدون مائة منهم لأنهم يعتقدون أن حياة المسيحي بحياة مائة هندي أحمر .

عن الممالك التي كانت في الجزيرة الإسبانية

كان في هذه الجزيرة ، قبل إفنائها ، خمس ممالك أساسية يحكمها خمسة ملوك أقوياء يخضع لهم الأسياد . وكان اسم المملكة الأولى « ماغوا » وتعني مملكة السهل الخصيب . وهي من أجمل ممالك العالم ، تمتد على ثمانين فرسخاً من بحر الجنوب إلى بحر الشمال ، ويبلغ عرضها خمسة فراسخ في بعض الأطراف وثمانية فراسخ أو عشرة في أطرافٍ أخرى . وتحيط بها من أطرافها سلاسل الجبال الشاهقة . إن فيها أكثر من ثلاثين ألف نهر ومسيل . ومعظم هذه الأنهار غني بالذهب الثمين . أما اسم ملكها فهو « غواريونر » . وقد كان له عدد من الأتباع والأسياد . بل إن سيدها واحداً من هؤلاء كان قادراً على أن يجند للملك ستة عشر ألف محارب . كان الملك لين العريكة خلوقاً مسالماً ، وكان وفيّاً للملك قشتالة ، يأمر في كل عام واحداً من رعاياه الأغنياء أن يقدم جلجلاً ممتلئاً بالذهب للملك قشتالة ، ثم اضطر بعد ذلك إلى جعله نصف جلجل ذلك لأن الهنود غير بارعين في استخراج الذهب . واقترح الملك أن يعوض عن ذلك بأن يزرع الأراضي الممتدة بين « ايزابيلا » و« سان دومينغو » وأن يقدم محاصيلها للملك قشتالة . ولكن ذلك لم يرق للحاكم الإسباني الذي كان يفضل الذهب على

المحاصيل الزراعية . وبدلاً من شكر الملك بعث بقبطانه المسيحي
الفحل إلى الملك فاغتصب امرأته . ولم يثأر الملك ، بل قرر أن يهرب
وحيداً ويختفي في الغابات حيث مات بعيداً عن وطنه ومملكته .

أما المملكة الثانية فكانت تُسمى « مارين » وقد شيد فيها الإسبان
مرفأً ملكياً . كانت « مارين » أكبر من مملكة البرتغال ، وكان شعبها
آمناً سعيداً . وفي جبالها مناجم غنية بالنحاس والذهب . أما اسم
ملكها فهو « غواكاناغاري » وكان يتبعه عدد من الأسياد الذين أعرف
معظمهم . وحين وصل الأميرال العجوز إلى المملكة استقبله الملك
بحفاوة بالغة ، هو وجميع المسيحيين الذين معه . وقد عاملهم بتسامح
ونبل ولياقة لم يعرفوا لها مثيلاً في بلادهم بل من أهليهم . ثم حين علم
الملك بأن السفينة التي كانت تحمل المؤونة قد غرقت أمداهم بكل
حاجتهم ومبرتهم . غير أن هذا كله لم ينفذ ، فقد أهين هذا الملك
الطيب ونهب ، وتاه في الغابات . أما أتباعه فمنهم من قُتل على يد
المسيحيين ومنهم من أُتلفت أراضيه ومات من شدة العذاب .

اسم المملكة الثالثة « ماغوانا » ، وهي أرض خصبة غنية بقصب
السكر ، واسم ملكها « كاونالا » . وهو ملك سخي بز الملوك
الآخرين فيما أعطاه للمسيحيين ، وقدمه من خدمات ، وأحياء لهم من
احتفالات ومهرجانات . وقد أخذه المسيحيون أسيراً إلى قشتالة ، غير
أن السفينة غرقت في البحر به وبمن عليها من الإسبان المسيحيين .
وحين علم أتباع الملك بذلك تمردوا وحملوا السلاح . وكان الإسبان
أقوى بالطبع ، خاصة وأنهم كانوا يهجمون على أحصنتهم (يُعتبر
الحصان أخبث سلاح ضد الهندي غير المعتاد عليه) . هكذا دمر
المسيحيون هذه المملكة ونهبوها وأخلوها من نصف سكانها .

المملكة الرابعة هي مملكة « كزاراغوا » . وكانت أهم الممالك وأشبهه ببلاط للجزيرة كلها . وقد كان لأهلها لغة مرهفة وعبادات نبيلة ، إذ بلغت التربية فيها مستوى راقياً حسناً . وهم ألطف أهل الجزيرة وأجلهم . ولهم ملك يدعى « بيهيكو » ، وشقيقة لهذا الملك اسمها « أناكاونا » . وللملك وشقيقته خدمات جلى قدماها للملك قشتالة . وحين توفي الملك خلفته أخته على العرش . فعلم حاكم الجزيرة بذلك وجاء إلى بلاطها بصحبة ستين فارساً وأكثر من ثلاثمائة راجل . وكان هؤلاء قادرين وحدهم على تخريب الجزيرة والأرض اليابسة . ولجأ الحاكم إلى الحيلة فأدخل معظم رجال بلاط الملكة إلى منزل من قش وأضرم فيه النار وأحرقهم جميعاً وهم أحياء . أما الملكة فإنهم شنقوها تكريماً لخدماتها ، وأما الأطفال فكانوا يضمونهم بالرماح من ظهورهم أو يقعدونهم أرضاً ويقطعون سيقانهم .

وكان اسم المملكة الخامسة « هيغواي » ، وتحكمها ملكة عجوز شنقتها الإسبان حين جاؤوا إليها وأحرقوا حاشية بلاطها وهم أحياء ، ولقد فطّعوا في التعذيب والفتك . ورأيت ذلك بعيني . إنني عاجز عن أن أصف كل ما شاهدت ، فلا الورق ولا الزمان بكافيين لسرد هذه الوحشية كلها . غير أنني أريد هنا أن أعترف بثقة مطلقة بأن الهنود لم يكونوا مسؤولين عن هذه الحروب ، وإنهم كانوا أكثر طيبة ومسالمة من رهبان الأديرة ، فلم يرتكبوا ذنباً واحداً مع المسيحيين ، بل إنهم برغم كل فظاعات المسيحيين بهم لم يعرفوا الحقد أو الضغينة أو الانتقام . ولقد عاشرتهم فلم أعرف فيهم العنف ، بل إن عنفهم ، حين يظهر فيهم ، أشبه بعنف الأطفال في الثانية عشرة .

حين انتهت الحروب في هذه الجزيرة ، وتم إفناء رجالها ، لم يبق

فيها إلا بعض النساء والأطفال . حينذاك قرر المسيحيون أن يقتسموهم بحجة أنهم سيهدونهم إلى الدين الكاثوليكي . بذلك ملك هؤلاء الأجلاف الأفظاظ رقاب هذه الأنفس البريئة ، فكانوا يسوقونهم إلى العمل طوال النهار ويمنعون عنهم الطعام ، بل كانوا يرمون إليهم الأعشاب بحجة أنهم ليسوا بشرأ بل حيوانات . وشيئاً فشيئاً مات الأطفال ، وماتت النساء في الحقول والمزارع . بذلك أُخليت الجزيرة من أهلها في غضون سنوات ، وحل محلهم هؤلاء الأفظاظ الغلاظ الذين أصمّ الله قلوبهم وعقولهم .

عن جزيرة كوبا

زحف الإسبان على جزيرة كوبا العامرة بالبشر في ١٥١١ . وكان فيها زعيم قبلي مرموق يدعى « هاتوى » هرب إليها مع عدد كبير من البشر حين اجتاحت الاسبان الجزيرة الإسبانية . ولما علم بأن الإسبان وصلوا إلى كوبا جمع رعيته وقال لهم : لقد سمعت بأن الإسبان قادمون . إنكم تعرفون ما قد جرى في جزيرتنا . وإنهم قادمون إلى هنا ليفعلوا هنا ما فعلوه هناك . هل تعلمون لماذا يفعلون ذلك ؟ قال له بعض الهنود البسطاء : إنهم يفعلون ذلك من أجل ربهم الذي يعبدونه ويقدمونه . إنهم يريدوننا أن نؤمن به ولهذا يقتلوننا . وكان « هاتوى » يملك سلة صغيرة مملئة بالذهب ، فابتسم وقال لهم : هذا هو رب المسيحيين . إنه رب الذهب . هيا نرقص له ونرضيه ، فربما سمع دعاءنا وأمر المسيحيين بأن لا يذبحونا . وصرخوا جميعاً : حسناً . حسناً . ثم رقص الناس حتى الإنهاك ، بعدها قال « هاتوى » : اسمعوني جيداً . سوف أرمي بهذا الذهب في النهر لأنهم سوف يقتلوننا بسببه . وكذلك فعل .

وعندما عرف المسيحيون بذلك علقوا مشنقته . ثم جاءه راهب من أخوية القديس فرانسوا يهديه إلى الإيمان المسيحي قبل موته . ولم

يكن زعيم القبيلة قد سمع عن ذلك من قبل . وقال له الراهب أن عليه أن يغتنم هذا الوقت القصير قبل موته ويؤمن ، لأن إيمانه سوف يدخله الجنة ، وإلا إلى النار . وسأل زعيم القبيلة الراهب : هل هنالك مسيحيون في الجنة ؟ قال الراهب : معظمهم هناك . عندها قال الزعيم الهندي من غير تردد : إنني أفضل دخول النار عن أن ألتقي بكم في الجنة . أرسلني إلى النار . هكذا صارت سمعة المسيحيين في بلاد الهند بفضل ما ارتكبه من فظائع .

مرة جاءنا الهنود لاستقبالنا محملين بالهدايا والخيرات . وقد أعطونا كثيراً من السمك والخبز والطعام ، وكل ما يستطيعون تقديمه .

وماذا فعل المسيحيون لشكرهم ؟ استولى الشيطان على قلوبهم فجأة فراحوا يقتلونهم بالسكاكين بلا سبب ولا مبرر . ولقد قتلوا أمام عيني أكثر من ثلاثة آلاف إنسان رجالاً وأطفالاً ونساء . لقد شاهدت وحشية لم يرها قبلي بشر ، ولا خطرت على بال إنسان .

ومرة توجهت مع حاكم المنطقة إلى هافانا . وقبل وصولنا بأيام بعثت إلى أسياذ المنطقة رسلاً أطمئنهم وأضمن لهم أن لن يؤذيهم أحد ، ذلك لأن الأرض كلها زلزلت بما سمعت عن مجازرنا . وحين وصلنا إلى هافانا استقبلنا زعماء القبائل ، وعددهم واحد وعشرون . ودُهلّت حين شاهدت القبطان يأمر جنوده بالقبض عليهم وحرقتهم أحياء . وقد ذقت الأمرين لإنقاذهم وأفلح مسعاي . لكن عزيمة القبطان لم تتثن فقد أمر بإحراقهم بعدها فأحرقوا أحياء .

وحين أدرك سكان كوبا أن مصيرهم مماثل لمصير الجزر الأخرى وأنهم سوف يقتلون ويُستعبدون قرروا الإنتحار الجماعي . كان الآباء

يشنقون أنفسهم وأهلهم وأطفالهم قبل وصول الإسبان .

وأذكر قصة الضابط الذي منحه الحاكم ثلاثمائة هندي فلم يبق منهم بعد ثلاثة أشهر غير ثلاثين . وأعطاه الحاكم أيضاً عدداً مماثلاً فقتلهم أيضاً . وكان كلما زيد في العطاء زيد في التقتيل إلى أن مات . ليت الشيطان يأخذ روحه .

وخلال إقامتي في الجزيرة أربعة أشهر توفي أكثر من سبعة آلاف طفل لأن أهلهم كانوا يصطحبونهم معهم إلى مناجم الذهب . ولقد رأيت أموراً أفظع عندما كان الإسبان يصطادون الهنود اللاجئين إلى الغابات والكهوف . هكذا أبادوا أهالي كوبا عن بكرة أبيهم . لقد شاهدتها عامرة بالناس . وأي أسى مر ينتاب المرء عندما يراها بعد ثلاثة أشهر صحراء موحشة .

غزو اليايسة

في عام ١٥١٤ توجه حاكم جبار إلى اليايسة . كان طاغية فظاً لا يعرف قلبه الشفقة أو الرحمة . كان أداة حقيقية في يد الغضب الإلهي . وكان مصرّاً على أن يملأ هذه الأرض بكثيرٍ من الإسبان .

وكان غيره من الإسبان قد سبقوه إلى اليايسة . فقتلوا ونهبوا ، لكنهم لم يتوغلوا بعيداً . أما هذا الحاكم فقد تجاوز في تعذيبه للهنود كل الذين سبقوه إلى الجزر ، فقد أغار على أكثر أراضي الهنود سعادة ورخاء ، وهي أراضٍ تمتد إلى أكثر من خمسمائة فرسخ وتصل إلى مقاطعة « نيكاراغوا » . كان فيها أسياد عظام ومدن مهمة وثروات ذهبية هائلة .

عرفت قبطاناً قام بحملته في هذه اليايسة فقتل أكثر من أربعة آلاف إنسان . روى لي الراهب « فرانثيسكو سان رومان » الذي رافق القبطان كل ذلك وقال إنه شاهدها بعينه .

وحين كان الإسبان يريدون أن ينهبوا قرية أو يسرقوا ذهبها وخيراتها يصلون إليها بعد منتصف الليل . وساعتها يقرأون على الهنود المساكين الغارقين في النوم « فرمان » فتحهم (بالإسبانية التي لا يفهمها

كل السكان) ، ويقولون فيه : « يا زعماء قبائل الهنود ، ويا سكان القرية . إننا نعلمكم بوجود إله واحد ، وبابا ، وملك قشتالة سيد هذه الأراضي كلها ، فاخرجوا وأعلنوا الطاعة له وإلا فإننا سنعلن الحرب عليكم ونقتلكم . ومع طلوع الفجر كان الإسبان يدخلون على هؤلاء المساكين الأبرياء النيام فيحرقون منازلهم القشية ويحرقون الأطفال والنساء وهم أحياء ، كما يحرقون الرجال قبل أن يستيقظوا . كانوا يقتلون من يشاؤون ، ويعذبون من يقبضون عليه حتى الموت ليدلهم على القرى الأخرى الغنية بالذهب . وأما من لا يقتلونه فيسمون على جلده شارة الرق بميسم من حديد . وحين تحمد النيران في البيوت يسارعون إلى نهب الذهب منها .

ذلك دأب الحاكم ودأب المسيحيين الأشرار الذين أقاموا معه في الجزيرة من ١٥١٤ حتى ١٥٢٢ . كان ذلك شأن ضباط الملك أيضاً كما هو شأن رئيس المطارنة في هذه الجزيرة ، فقد كان هو أيضاً يرسل خدمه ليأتوه بحصته من الذهب .

لقد سرق الإسبان من هذه المملكة أكثر من ٤٠٠ مليون غرام من الذهب . وأعتقد أن هذا أقل من الرقم الحقيقي . ولم يبعث الإسبان من هذا الذهب المسروق إلى ملك قشتالة إلا النزر القليل . كذلك قتلوا ٩٠٠ ألف إنسان فيها ، ثم قضى الحكام الطغاة الذين تعاقبوا عليها إلى عام ١٥٣٣ على كل ما تبقى من أهلها .

ذات مرة جاء زعيم قبيلة هندي إلى الحاكم ، وقدم له طوعاً (وربما عن خوف) حوالي ٣٦ ألف غرام من الذهب ، فلم يطب خاطر الحاكم الذي أسر في نفسه قائلاً : إذا كان هذا الهندي يعطيني

كل هذه الكمية من الذهب طوعاً فلا شك في أنه يملك أضعاف
أضعافها . وكان المسكين قد أعطى الحاكم كل ما يملك من الذهب .
لكن الحاكم لم يصدق ، وأمر جنوده بتعذيبه لعله يعطي المزيد . وبما
أن الزعيم الهندي لم يكن يملك فعلاً أكثر مما أعطى فقد استمروا في
تعذيبه . ثم ربطوه إلى وتد في الأرض وأشعلوا النار تحت أقدامه .
وظل على هذه الحال من العذاب إلى أن « سال نخاعه على أخمص
قدميه » ! .

و ذات مرة خرجت فرقة من الجنود للنهب ، ووصلت إلى غابة
اختبأ فيها عدد من الهنود خوفاً من وحشية المسيحيين وجرائمهم .
وانقضّ الجنود عليهم فقتلوا منهم ما استطاعوا ، وسبوا سبعين امرأة .
واحتشد الهنود في اليوم التالي وطاردوا المسيحيين طلباً لنسائهم
وسباياهم . وحين أحس المسيحيون أن الهنود قد اقتربوا منهم ذبحوا
النساء والسبايا وبقروا بطونهن ، فلم يبقوا على واحدة منهن . وأصيب
الهنود بالامتعاض والخيبة والتأذي فراحوا يلطمون أنفسهم
ويصيحون : يا للأشرار . يا للمسيحيين الهمج . لقد قتلتم نساءنا ،
قتلتم أطهر كائنات الدنيا . وقتل النساء عند الهندي أكبر دليل على
البهيمية .

عن مقاطعة نيكاراغوا

في ١٥٢٢ أو ربما ١٥٢٣ توجه هذا الحاكم الطاغية لاجتياح مقاطعة « نيكاراغوا » السعيدة . وقد اجتاحتها . من يستطيع أن يتغنى بسعادة هذا الشعب الغفير ووفر صحته وحميد خصاله ؟ لقد كان منظرآ يخلب الألباب ويفتن العيون تلك القرى المرسومة على ثلاثة فراسخ أو أربعة تتخللها الحقول .

كانت الأرض سهلاً يستحيل على سكانها أن يختبئوا فيها . وكانت أرضاً خصبا تؤتي ثمرها بسخاء . ولم يكن الهنود ليطيعوا التخلي عنها . لذلك صبروا على وحشية المسيحيين واستعبادهم لهم . فقد كانوا بطبيعتهم مسلمين متواضعين . وكان هذا الطاغية وصحبه قد ارتكبوا كثيراً من المذابح والفظائع واسترقوا واستعبدوا الكثيرين مما يصعب على الإنسان وصفه وإحصاؤه . أما المذابح فترتكب وفقاً لمزاج الطاغية ولأتفه الأسباب . كان يأمر بذبح الهنود إذا تأخروا في الرد عليه أو الوصول إلى قصره ، أو إذا لم يجيئوه بالقمح في الوقت المناسب . ولم يكن هنالك هندي يستطيع النجاة من أحصته الغاضبة .

وكان يرسل جنوده في حملات لنهب القرى الهندية ، ويسمح لهم

باسترقاق ما استطاعوا منهم . وكان هؤلاء يربطون الهنود لكيلا يرموا بما أثقلت به ظهورهم . ولقد شاهدت حملة استرقوا فيها ستة آلاف هندي من قرية واحدة فلم يصل منهم إلا ستة أحياء . أما الباقيون فقد تساقطوا على الطرق بسبب الجوع أو المرض أو الجراح التي أصابتهم والحمولة التي آذتهم . وكان الإسباني حين يرى بعضهم يسقط أرضاً يقطع رأسه بالسيف لكي لا يزعج نفسه بفك الحمولة عن ظهره .

وذات مرة لم يستطع الهنود بذر القمح الكافي فشح الموسم ولم يتوفر الخبز الكافي للمسيحيين ، فنهبوا كل مؤونة الهنود، ومات أكثر من ثلاثين ألفاً من الأطفال والنساء والشيوخ جوعاً . كان المسيحي يستولي على أرض هندي ويأكل ثمارها ويستخدم أصحابها ويسترقهم . أما الطفل الهندي فيصبح عبداً بمجرد أن يقف على قدميه .

هكذا أبادوا هذه الشعوب ، وما زالوا يبيدون .

لقد حملوا على ظهورهم الخشب مسافات طويلة ، بل حتى المراتى ليشيدوا مراكبهم . وقد مات كثير منهم على الطريق . لم يوفروا امرأة جبلية أو طفلاً . كانت الجبلية تسقط من الإعياء وتموت ، وكان المراهقون يؤمرون بالانطلاق إلى الغابات لجمع العسل والشمع ، وكانت الحيوانات الضارية تفني معظمهم .

وانتشرت تجارة الرق في هذه المقاطعة . وقد أمر الحاكم الطاغية كل زعيم هندي بأن يؤمن له خمسين هندياً في كل شهر لاسترقاقهم . وكان جنوده يذهبون إلى هذا الزعيم في آخر الشهر ، فإذا لم يجدوا العدد الكافي رموا بالزعيم إلى كلابهم . وقد اضطر هؤلاء إلى تجميع الرقيق من قبائلهم فإذا كان للأسرة أربعة أطفال ضحت باثنين ، وإذا

كان لها طفلان ضحت بواحد . هكذا إلى أن يستكمل العدد المطلوب . وكانت هذه المخلوقات الشقية تُنقل في مراكب إلى بلاد « باناما » أو « البيرو » لتُباع هناك . بذلك غادر « نيكاراغوا » أكثر من ٥٠٠ ألف هندي كانوا يتذوقون طعم الحرية كما أتذوقه الآن بينما توفي أكثر من ٦٠٠ ألف داخل الجزيرة ، وذلك مما عانوه .

كل هذا الدمار . . . في أربعة عشر عاماً . إننا لا نجد اليوم في كل بلاد « نيكاراغوا » أكثر من أربعة آلاف أو خمسة آلاف شخص . وما زال الإسبان يقتلون فيهم .

عن ما يُسمى باسبانيا الجديدة

اكتشفت هذه البلاد التي صارت تسمى بإسبانيا الجديدة في عام ١٥١٧ ، ولم يمض عام على اكتشافها حتى ابتدأ المسيحيون بقتل سكانها ، وهم يزعمون أنهم جاؤوا لإعمارها . وبين ١٥١٨ و ١٥٤٢ وصل العنف والطغيان أوجهما في بلاد الهند . لقد نسي المسيحيون الله ونسوا الملك ، كما نسوا أنفسهم . وأحب أن أُنبه إلى أن التدمير والتفطيع والقتل والفتك والإبادة في باقي البلاد الهندية لا يُقارن بما جرى هنا في إسبانيا الجديدة .

وإنني أسكت عن الكثير ، ولا أذكر إلا اليسير مما جرى بين ١٥١٨ و ١٥٤٢ ، أي الوقت الذي أكتب فيها مذكراتي هذه .

حتى هذا اليوم من شهر أيلول / سبتمبر ما أزال أرى بعيني أفضع أعمال العنف . وهذا ما يؤكد ما ذهبت إليه حين قلت إن العسف والجور والطغيان .. كل ذلك يتزايد مع الزمن .

بين ١٨ نيسان / إبريل ١٥١٨ و عام ١٥٣٠ (أي في اثني عشر عاماً) خرب المسيحيون وأبادوا بسيوفهم الدموية المجرمة أكثر من ٤٥٠ فرسخاً حول مدينة مكسيكو ، وهي مساحة شهدت خمس ممالك .

أكبر من إسبانيا وأكثر سعادة وعمراناً منها .

وكانت هذه الممالك أحفل بالناس من طليطلة وقشتالة وفالادوليد وسرقسطة وبرشلونة مجتمعة . بل إن هذه المدن جميعاً لم تكن أهلة بالسكان كما هي حال الممالك الهندية حول مكسيكو . وفي هذه الأعوام الإثني عشر قتل الإسبان أكثر من أربعة ملايين من الأهالي نساء وأطفالاً وشباباً وشيوخاً أو أحرقوهم أحياء . وأكرر هنا: لقد ظلت هذه الوحشية منتظمة طوال ما يسمونه بفترة « الفتوحات » ، وهي في الواقع اجتياحات عنيفة شنها طغاة أجلاف يدينهم قانون الله وقوانين البشر . إننا لا نستطيع أن نقارن هذه الوحشية بكل ما فعله الأتراك من أجل تدمير الكنيسة المسيحية ! إنني لا أتحدث هنا عن الذين يموتون يومياً في ظل العبودية الفظة ، أو في ظل التعذيب والتكيل ، فليس هنالك لغة أو قدرة أو براعة بشرية تستطيع سرد هذه الوقائع المخيفة التي تجري في بلاد الهند يومياً على أيدي هؤلاء « الزوار » الذين جاؤوا إلى هذه البلاد ، هؤلاء الذين يعتبرون عدواناً خطيراً على بني الإنسان .

والواقع أن تفسير بعض هذه الأعمال الوحشية مستحيل مهما بذلت له من جهد وصرفت له من وقت ، لكنني سوف أتحدث عن ذلك في المقاطع اللاحقة مقسماً أنني لا أذكر إلا معشار معشار معشار ما جرى .

وهأنذا أذكر واحدة من المجازر العديدة . إنها مجزرة ارتكبت في مدينة يزيد أهلها على ثلاثين ألفاً . واسم المدينة « شولولا » .

حين علم الهنود بمجيء الإسبان خرج زعماء المنطقة جميعاً لاستقبالهم وكان معهم الكهنة ورئيس الكهنة . وقد سار الموكب للقاء

المسيحيين تظلمه الهية ويحيط به الجلال . ودعا الهنود ضيوفهم الإسبان لينزلوا في بيوتهم وقصورهم . غير أن الإسبان كانوا مصممين على المجزرة التي كانوا يسمونها « عقاباً » لبسط الهية وترويع السكان وتخويفهم . وكانت هذه سياسة الفتح الإسباني : أول ما يفعلونه عندما يدخلون قرية أو مدينة هو ارتكاب مجزرة مخيفة ، مجزرة جماعية ترجف منها أوصال هذه النعاج المرهفة .

ونادى الإسبان كل أسياد المدينة ونبلائها ليسجنوهم فوراً ، ومن غير أن يعلم بذلك أحد من الطلقاء . ثم طلب الإسبان ستة آلاف هندي ليحملوا بضائعهم . وحين جاؤوا سجنوهم كذلك في باحات المنازل . إن مشهد هؤلاء الهنود وهم يستعدون لحمل حقائب الإسبان وبضائعهم يثير الشفقة والأسى ، فهم يجيئون عراة ليس عليهم إلا ما يستر عوراتهم ، ويحملون معهم شباكاً صغيرة فيها طعامهم المتواضع ، ثم يقرفصون جميعاً كالخراف الوديدة . وحين تجمّع الهنود أغلق عليهم الإسبان الأبواب وشددوا عليها الحراسة ، ثم استلّوا خناجرهم وبدأوا بذبح هذه النعاج ، فلم ينج منهم إلا القليل . وبعد يومين أو ثلاثة رأينا بعض الهنود يخرجون أحياء ملطخين بالدم . وكان هؤلاء الناجون قد اختبأوا تحت القتلى (ونجحوا في الإختفاء لكثرة القتلى) . وراح هؤلاء الناجون يسترحمون الإسبان ويستعطفونهم أن لا يقتلوهم . . سدى ، فالإسبان لا يعرفون الشفقة أو الرحمة ولهذا قطعوهم إرباً إرباً . . .

بعد قتل ستة آلاف هندي أمر القبطان بإخراج الأسياد الذين كانوا موثقين بالنير ، وعددهم أكثر من مائة ، ثم أمر جنوده بإحراقهم أحياء . لكن ملكهم استطاع أن يفك وثاقه فهرب مع عشرين أو

ثلاثين ، وربما أربعين من رجاله ، واختبأوا في معبدهم الكبير « كوه » الذي يشبه القلعة . وقاوموا نهاراً كاملاً . ولكن عبثاً مقاومة الإسبان بهنود عزل من السلاح . لقد أمر القبطان الإسباني بإحراق المعبد ومن فيه . وكنا نسمع صراخ الرجال وهم يحترقون : آه من هؤلاء الأشرار . ماذا فعلنا لكم ؟ لماذا تقتلوننا ؟ إن زعيمنا الأكبر « مونتيروما » في مكسيكو سوف ينتقم منكم . وقيل لي إن القبطان كان يعني عندما كان جنوده يذبحون الهنود . وينشد :

« هانبيرون ينظر إلى الحريق »

المشتعل بين روما وصخرة ترميا

الأطفال والشيوخ يصرخون

وهو لا يشعر بشيء . »

وقام الاسبان بجزرة أخرى في مدينة تيباكا ، وهي أكبر من مدينة شولولا ، وعدد سكانها أكثر . ولم تسلم من فظائعهم الوحشية .

ومن هناك توجهوا إلى مكسيكو فأرسل إليهم ملكها الكبير « مونتيروما » بالوف الهدايا ، وأمر بإحياء الحفلات على طول الطريق المؤدية إلى مكسيكو ، ثم أوفد إليهم أخاه ليستقبلهم بالترحاب قبل وصولهم إلى مكسيكو بفرسخين ، وكان معه عدد من الأشراف المحملين بهدايا الذهب والفضة والملابس . وعندما وصلوا مدخل المدينة جاء « مونتيروما » لاستقبالهم بنفسه ، تصحبه حاشيته ، ثم اصطحبهم إلى قصره وأنزلهم ضيوفاً عنده . وقد علمت أن الإسبان انقضوا على الملك في اليوم نفسه وأوثقوه بسلاسل الحديد . كان الملك يجهل الخذر .

و حين علم الهنود بذلك قرروا إحياء الحفلات حول القصر إكراماً
لملكهم الموثق بالسلاسل ، فعسى أن تشفع له آلهتهم ، كما أقاموا
الرقصات والاحتفالات في كل أنحاء المدينة . ولبس الهنود في هذه
المناسبة أجمل ثيابهم وأعلى حليهم ، واشترك في ذلك أكثر من ألفي
شريف ونبيل : صفوة القوم . عندها وجه القبطان الإسباني رجاله إلى
مختلف أنحاء المدينة حيث كانت الاحتفالات بحجة أن الجنود يرغبون
في مشاهدتها ، وأمر جنوده بالانقضاض على الهنود في ساعة معلومة .
وبينما كان الهنود يرقصون ويغنون صرخ القبطان : « عليهم يا قديس
جاك ، يا قديس جاك عليهم » ! وابتدأ المسيحيون بتمزيق تلك
الأجساد الياقة البضة بسيوفهم ، وسفك تلك الدماء الكريمة . لم
يتركوا هندياً واحداً على قيد الحياة . وكذلك فعل باقي الجنود .

مثل هذه الأفعال نشرت الرعب وأشاعت الذهول في هذه
الشعوب البريئة ، وأصابتهم الحسرة والمرارة . ولسوف تبقى هذه
الشعوب تنشد أساها في أغانيها الوطنية ورقصاتا حتى نهاية العالم ،
ولسوف تندب ما أصاب سلفها الشريف النبيل من فجائع .

حين سمع باقي الهنود بهذه الوحشية ثاروا ، على الرغم من أنهم
تحملوا سجن ملكهم بكل تسامح . وكان الملك قد أمرهم بأن لا
يعتدوا على المسيحيين ولا يقاتلوهم . لكنهم حملوا سلاحهم وانقضوا
على الإسبان ، وجرحوا كثيراً منهم . وكانت تلك هي المرة الأولى التي
يدافع فيها الهنود عن أنفسهم . . عند ذلك أخرج الإسبان الملك
« مونتيوزوما » من سجنه وأصعدوه إلى الشرفة وهم يحملون الخناجر
ويهددون بذبحه . وأمر الملك شعبه بإلقاء السلاح وعدم الهجوم على

القصر . أما الهنود الذين ملأهم الغضب والحزن على العدد الهائل من قتلهم فراحوا يهددون بانتخاب ملك جديد يقود معاركهم .

ومع ذلك فقد اضطر الهنود إلى وقف المعارك أربعة أيام ، لكنهم عادوا في اليوم الخامس وقاتلوا ببسالة وبطولة مما اضطر الإسبان إلى الفرار من المدينة والنجاة بجلدهم . وحين علم الهنود بذلك قتلوا الكثير منهم على الجسور المؤدية إلى البحيرة . وإني لأشهد بأن دفاع هذه الشعوب كان عادلاً جداً ومقدساً جداً . إن كل عاقل يقر هذا الدفاع ويدعمه .

وما لبث المسيحيون أن عادوا إلى المدينة مدججين بالسلاح ، وأغاروا عليها وتفننوا في تعذيب أهلها تعذيباً ليس له مثيل ، وقتلوا أشرفها أو أحرقوهم أحياء . وقد نالت مكسيكو القسط الأوفر من الدمار والتعذيب اللذين امتدا عشرين فرسخاً بعيداً عن مكسيكو . ثم اجتاح الطاعون مقاطعة « بانوكو » المكتظة بالبشر فلم يكتفِ الإسبان بما فعل الطاعون بل أتبعوه بمذابح مخيفة .

ودمر الإسبان أيضاً مملكة « كوتوتيبك » و« بيلسينغو » و« كوليبا » ، علماً بأن كل واحدة من هذه الممالك أكبر من مملكة قشتالة . إن وصف المجازر التي ارتكبت في هذه الممالك أمر يفوق طاقتي الإنسانية ، بل يكاد يكون مستحيلاً . . كان هؤلاء المنحطون الطائشون لا يوحون إلا بالرعب والخشية ، فهم لا يكثرثون بحق ، طبيعياً كان ، أو إنسانياً ، أو إلهياً . إنهم يمتهنون القيم والمعايير ، ولسوف يرون العذاب ومأواهم جهنم بما يرتكبون من سيئات وموبقات تُنسب للملوك قشتالة .

لقد وجه هذا الطاغية قبطانين ييزانه وحشية وجبروتاً إلى ممالك عظيمة مزدهرة وشعوب سعيدة تسكن بلاد « الغواتيمالا » الحافلة بالبشر والتي تقع على بحر الجنوب ، وإلى بلاد « ناكو » ، و« هندوراس » أو « غوامورا » على بحر الشمال . وكان قلبا هذين القبطانين كقلب الطاغية لا يعرف شفقة أو رحمة .

وكانت المملكتان متجاورتين ، لا تبعد حدودهما مائتان أو ثلاثمائة فرسخ من مكسيكو . ولقد وجه هذا الطاغية قبطانه الأول برأ ، ووجه الثاني عن طريق البحر ، وأصبح كلاً منهما ، بعدد من الفرسان والمشاة . وقد تفنن هذان الجباران في الإجرام والإثم والخراب والظلم والفتك والوحشية ما سيروّع القرون الحاضرة والمقبلة ويصيبها بالهول ، وما لا تستطيع الكتب الكبيرة أن تستوعبه (وأخص القبطان الذي توجه إلى غواتيمالا ، لأن الثاني عوجل بالموت) . إن أحداً من البشر لن يستطيع أن يحصي كم قتل هذا الوحش ، أو مساحات الأراضي التي أقفرها من البشر . أما القبطان الذي توجه بحراً فقد نهب قرى الساحل وطرده أهلها . وفي مملكة « يوكاتان » الواقعة على طريق مملكة « ناكو » و« غوامورا » جاء الهنود لاستقباله بالترحاب والهدايا ، لكنه كغيره من الإسبان لم يحفل بهم بل وجه جنوده لتدمير القرى وقتل أهلها . وقد حدث أن تمرد أحد جنود القبطان وسبقه إلى الأراضي القريبة من غواتيمالا ، فنهبها وأحرق أهلها أحياء . وقد ارتكب فظائعه على مساحة أكبر من ١٢٠ فرسخاً . ولما لحق به قبطانه لم يَرَ إلا الدمار والقتلى . أما من تبقى من الهنود ونجا فقد امتلأ بالنقمة وهجم على الإسبان ، فنشبت معارك دموية بين الطرفين .

وظل الإسبان يعيشون فساداً وخراباً من عام ١٥٢٤ حتى ١٥٣٥

ويصدرون العبيد إلى إسبانيا بالسفن ، ويتقاضون لقاءهم النبيذ
والثياب والأغذية .

ولقد مررت بهذه الممالك في طريق العودة ، وكاد قلبي أن ينفطر
لرؤيتها خراباً أقفر من أهله . لقد قتل الإسبان خلال الأحد عشر
عاماً أكثر من مليوني شخص في هذه البلاد ، وتركوا أقل من ألف
شخص في مساحة تتجاوز مائة فرسخ مربع . وإنهم ماضون في القتل
يوماً بعد يوم ومستمرون في الاستعباد .

عن مملكة غواتيمالا

لم يكد القبطان يصل إلى هذه المملكة حتى ارتكب مجزرة كبيرة ،
وبرغم ذلك فقد هب أكبر أشرف المملكة لاستقباله والترحاب به .
وجاء على محفة تواكبه الأبواق والطبول في موكب مهيب ، وجاء معه
كثير من أشرف مدينة « التاتلان » عاصمة المملكة . وأهدى الهنود
للإسبان الغالي النفيس . وأقاموا لهم مأدبة كبيرة . ونام الإسبان ليلتهم
تلك خارج المدينة لأن ذلك أكثر أماناً .

وفي اليوم التالي نادى القبطان كبير الأشراف وكثيرين غيره فجاءوا
جميعاً كالنعاج الوديعه . وسجنهم القبطان جميعاً ، وأمرهم بإعطائه كل
ما يملكونه من ذهب . وأجابوه أنهم لا يملكون ذهباً لأن أراضيهم
خالية منه . عندها أمر جنوده بإحراقهم من غير ذنب أو محاكمة .

وحين علم باقي الأشراف بذلك هربوا من القرى ولجأوا إلى
الغابات وأمروا أبناء شعبهم أن يخدموا الإسبان كما يخدمون أسيادهم ،
وطلبوا إليهم أن لا يعلنوا عن مكان اختبائهم . وانصاع الشعب لأمر
أشرافه ، فلاقوا الإسبان بالترحاب والطاعة . غير أن القبطان لم يعنه
من ذلك شيء وطلب إليهم أن يكشفوا مخبأ أشرافهم ، فلما أبوا قتلهم

جميعاً . وكان كلما جاء فوج منهم إليه معلناً طاعته سألهم عن
أشرافهم ، ثم قتلهم .

ومع الزمن حذق الإسبان وبرعوا في فن القتل والذبح ، وصاروا
يفعلون ذلك بطريقة أسرع ووقت أقصر . وأذكر أن الإسبان دخلوا
مرة إلى قرية كبيرة قوية (وكان سكانها واثقين من براءتهم وواثقين من
أنفسهم) فلم ينصاعوا لما طلب الإسبان منهم ، فاجتاحها الإسبان
وقتلوا من فيها في أقل من ساعتين .

وحين رأى الهنود أنهم لن يستطيعوا أن يستعطفوا قلوباً بهذه
الوحشية ، وأنهم إلى الذبح لا مفر ، وأنهم لن يستطيعوا دحر
الإسبان ، قرروا الانتحار . كانوا شبه عراة ، عزلاً من السلاح ،
ضعاف البنية ، ويستحيل عليهم الوقوف في وجه جيوش متوحشة
جهنمية تقاتل فوق الأحصنة وهم مشاة حفاة . وما لبث الهنود أن
اخترعوا طريقة لأذى الإسبان . كانوا يهيئون حفراً صغيرة على
الطرق التي يسلكها الإسبان بأحصنتهم . وكانت هذه الحفر تملأ
بالأوتاد المسنونة الحادة لقتل الأحصنة . كما كانت تغطي بالعشب
للتمويه . وانطلقت الحيلة على الإسبان مرة أو مرتين ، ثم سرعان ما
عرفوا كيف يتجنبون هذه الحفر ، وكيف ينتقمون . كانوا كلما التقطوا
هندياً ألقوا به في هذه الحفر حياً ، مهما كان عمره أو جنسه . هكذا
كانوا يرمون فيها الحبالى والمرضعات والشيوخ والأطفال . وكان مشهداً
يبعث على البكاء حين كنا نمر بالقرب من هذه الحفر الممتلئة بالهنود وقد
اخترقت الأوتاد أجسادهم . وكنا نرى الكلاب السلوقية تعيش على
لحم هؤلاء المساكين . لقد ارتكب الإسبان هذه المجازر منذ ١٥٢٤
حتى ١٥٣١ . وأترك للقارىء تقدير عدد القتلى .

وأذكر فظاعة أخرى ارتكبتها هذا القبطان من بين ما ارتكبه من فظائع . كان ذلك في مقاطعة « كوزكاتان » ، حيث توجد اليوم مدينة سان سلفادور تقريباً . كانت أرضاً سعيدة تشرف على معظم الساحل الذي يمتد ٤٥ فرسخاً على بحر الجنوب . ولقد خرج أكثر من ثلاثين ألف هندي من العاصمة « كوزكاتان » لاستقبال الإسبان . كانوا يحملون معهم الدجاج والأغذية . وبعد أن أخذ الإسبان الهدايا أمر القبطان بتوزيع الهنود على الجنود عبيداً ، فكانت حصة كل جندي ١٥٠ عبداً هندياً . وبذلك تشتت أسر هؤلاء الهنود الأبرياء بين هذا الجندي الإسباني وذاك .

بعد ذلك طلب القبطان من الأشراف أن يحضروا له ذهبهم . وكان هذا أول ما يطلبه الإسبان ، فقال لهم الهنود إنهم لا يملكون منه الكثير ، ثم جمعوا لهم عدداً هائلاً من الفؤوس النحاسية المطلية بالذهب (وكانت هذه أدواتهم الرئيسية) . لكن القبطان استعمل محكاً فعرف أن الفؤوس من نحاس وأنها مطلية بالذهب طلاء ، لهذا أمر جنوده بتصدير هنود هذا البلد عبيداً إلى « البيرو » . وكان يهتز غضباً ويصرخ : فليذهب هذا البلد إلى الجحيم . ولنرحل ما دمنا لم نجد ذهباً . وقاوم بعض أولئك المساكين ، فشن عليهم الإسبان حرباً ضارية وذبحوهم ثم عادوا إلى « الغواتيمالا » حيث كانوا قد شيدوا لأنفسهم مدينة أنزل الله عليها عذاب الطوفان والحريق ومحأها عن بكرة أبيها .

وكان الهنود يقدمون أولادهم (الصبيان والبنات) للإسبان الذين ملأوا منهم سفناً كاملة . أما من كان يرفض تقديم أولاده فكان يُقتل . ولقد قتل هذا القبطان المجرم هو وأخوه أكثر من أربعة ملايين

أو خمسة ملايين نسمة بين عام ١٥٢٤ و ١٥٤٠ . وإنهم ما زالوا يقتلون الأحياء الباقين . وسوف يستمرون في القتل .

وإليكم واحدة من فظائع الإسبان .

مرة كان هذا القبطان متوجهاً إلى الحرب بجيش من عشرة آلاف أو عشرين ألفاً . وكان معه عدد كبير من الهنود الذين ساقهم (عبيداً) بعد تعذيبهم . وكان القبطان لا يقدم لرجاله الطعام ، لكنه سمح لهم بأن يأكلوا الهنود الذين معهم أو الذين يلتقطونهم أثناء الغارات على المدن والقرى . هكذا صار معسكره أشبه بمسلك يتراكم فيه لحم البشر . كان الرجال يقتلون الأطفال ويشوونهم . وكانوا يقتلون الإنسان من أجل أن يأكلوا لحم كفيه وقدميه قائلين إنها أشهى لحم الإنسان . وحين عرف سكان المناطق القريبة بهذه الأعمال البهيمية أصيبوا بالهلع ولم يعرفوا أين يختبئون .

وقتل هذا الطاغية من الهنود عدداً كبيراً بطريقة أخرى . كان يحمل عليهم قطع الخشب الكبيرة ليني منها السفن . كانوا يحملونها مسافة تبلغ ١٣٠ فرسخاً . كما كان يحمل عليهم قطع المدفعية الثقيلة ، فكانوا يموتون على الطرقات . وكان يملأ السفن بالهنود الذين يموتون جوعاً وعطشاً . والحق أقول إنني إن وصفت كل فظائع هذا الطاغية لأرعبت العالم .

لقد شيد هذا الطاغية أسطولين أحرق بهما كل هذه الأراضي وكان السماء كانت تمطر ناراً . آه ، كم ترك من أيتام ، وكم سرق أطفالاً من أهلهم ، وكم حرم رجالاً من زوجاتهم ، ونساء من أزواجهن . وآه كم ارتكب جنوده الزنا والفسق والدعارة والعنف . كم استعبد بشراً ، وكم أهرق دماً وأسال دموعاً .

عن اسبانيا الجديدة في بانوكو وجاليسكو

لم تقتصر مذابح الإسبان على الممالك التي ذكرناها ، ففي عام ١٥٢٥ دخل طاغية جديد إلى مملكة « بانوكو » فقتل الكثير ، وساق عدداً هائلاً من الهنود الحمر إلى جزيرة كوبا لبيعهم . وقد أحضر واحد من جنود هذا الطاغية ثمانية آلاف هندي لينوا سوراً لأرضه . وقد سقط معظمهم موتى من الجوع . وكان الجندي يبيع كل مائة هندي بحصان .

وتوجه هذا الطاغية إلى مملكة « ميشواكان » التي تبعد أربعين فرسخاً عن مكسيكو ، وكانت مثلها سعيدة وحافلة بالسكان . وخرج ملك المنطقة مرحباً به ، وقدم له الهدايا النفيسة والحلي . ولكن الطاغية كان يسمع أن هذا الملك شديد الغنى وأنه يملك كنوزاً من الذهب والفضة . لهذا أمر بتعذيبه إلى أن يسلم كنوزه . وجيء بالملك فأوثقت قدماه ، وربطت يده إلى لوح من السنديان ، ووضعت تحت قدميه محرقة ، وأوكل بتعذيبه واحداً من الزبانية الإسبان . كان هذا الجلاد يغمس خرقاً بالزيت المحمى ويرش بها جسد الملك ليشوى

لحمه جيداً . وكان جلاد إسباني آخر يقف أمام الملك . ومعه كلبه السلوقي يهيجه على لحم الملك ويهيجه على التهامه . هكذا عذبه إلى أن أنقذه أحد الرهبان ، لكن المسكين توفي من حرقه .

واكتشف هذا الطاغية أن الهنود يخشون أصنامهم خوفاً من الإسبان الذين كانوا يسرقونها ظناً منهم بأنها مصنوعة من الذهب . وكانوا يخفونها لأنهم لا يؤمنون بإله الإسبان . وأغار الطاغية عليهم ذات ليلة فنهب أصنامهم بعد أن عذبهم أشد العذاب . وحين اكتشف أنها ليست من ذهب ، أجبر أشرف القبائل على شرائها بما يملكونه من ذهب . وقبل الأشرف ذلك لأنهم كانوا يعبدون هذه الأصنام ويقدمونها . تلك هي أفعال الإسبان وطريقتهم في عبادة الرب .

ودخل هذا الطاغية إلى مقاطعة «جاليسكو» التي كانت تعج بأهلها كما تعج خلية النحل ، وتمتد قراها على أكثر من سبعة فراسخ . وحين علم الهنود بمقدم الإسبان خرجوا إليهم مرحبين محملين بالهدايا النفيسة والذهب . وأقاموا للإسبان الاحتفالات . وهنا فعل الطاغية ما فعله في الممالك الأخرى . لقد أخضع الهنود للتعذيب ليحصل على ما يعتبره إلهاً له ، أعني الذهب . وارتكب الإسبان هنا أيضاً ما ارتكبه في الممالك الأخرى من قتل وذبح واغتصاب . وكان جنود هذا الطاغية يغتصبون النساء ويجبرونهن على رمي أطفالهن . وأذكر أن مسيحياً شريراً أراد اغتصاب صبوية أمام أمها ، وحين رفضت الاستسلام له قطع يدي الأم وطعن الصبوية بالخنجر .

وساق الطاغية أكثر من خمسة آلاف هندي رجالاً ونساء وأطفالاً لبيعهم في أسواق العبيد . وكان فيهم الرضع أيضاً . وأقدم رجاله

على ارتكاب الفظائع والأعمال الوحشية كغيرهم من المسيحيين الإسبان ، فكانوا يقطعون السنة الهنود ويطعمونها إلى الكلاب . وقيل لي إن هذا الطاغية قد أحرق ٨٠٠ قرية في « جاليسكو » ، فهرب من هرب واختفى في المغارات والكهوف . وقد حاول بعضهم التحصن ببعض الصخور لكن الإسبان قتلوهم لأنهم ، كالعادة ، كانوا مدججين بالسلاح .

هكذا اكتشف المسيحيون الإسبان بلاد الهنود وهكذا فتحوها .

وإنه ليحق للهنود ، باسم كل الحقوق والشرائع والقوانين الطبيعية والساوية البشرية أن يقطعوا الإسبان تقطيعاً ، لو ملكوا السلاح الكافي والقوة اللازمة .

كان الإسبان طوال هذه السنين يكتبون ويزعمون أن الله أرسلهم لفتح هذه البلاد التي كانت آمنة مطمئنة ، وإن الله هو الذي نصرهم على هذه الأمم . وكانوا يحمدون الله في صلواتهم ويشكرونه لأنه أعطاهم كل هذه الخيرات ولأنهم قاموا بكل هذا الطغيان . إنهم يفعلون ذلك كما كان الطغاة اللصوص الذين قال عنهم النبي زكريا : « مبارك هو الرب . لقد صرنا أغنياء » .

عن مملكة « يوكاتان »

بفضل الرياء والكذب الذي كان يبيدها لملك قشتالة فقد تم تعيين طاغية إسباني حاكماً على مملكة يوكاتان . وكانت هذه المملكة أغنى بالثمار والفواكه والأغذية من مملكة مكسيكو^(١) . كذلك كانت أغنى بالعسل والشمع من كل بلاد الهند الأخرى . وكان يحيطها حوالى ثلاثمائة فرسخ .

أما أهلها فكانوا لطافاً ظرافاً لا يعرفون الشر والإثم ، وكانوا أصحاب حكمة وأدب جم . كان شعباً يستأهل أن يعرف الله ويعبده . وكان في وسع الإسبان أن يشيدوا في هذه البلاد مدناً عظيمة ، وأن يعيشوا مع هذا الشعب كأنهم في جنة أرضية . غير أنهم

(١) تقول بعثة « روي فرايتس » التي أعادت اكتشاف المنطقة في عام ١٩٨٦ أنها اكتشفت بالقرب من يوكاتان ١١٢ موقعاً من حضارة المايا ، يدل بعضها على نظام ري متطور ، مما يجعلك تتأكد من أن هذه المنطقة كانت عامرة بملايين البشر . ويقول فرايتس أن المنطقة كانت تشهد زراعة متطورة . أما بيتر هاريسون (عالم الآثار من جامعة نيومكسيكو) فقال إن عدد سكان يوكاتان كان أكثر من ١٥ مليوناً . وهذا ما يؤكد على أن تقديرات « لاس كازاس » كانت متواضعة إذا قارناها بالواقع .

لم يكونوا يستأهلون ذلك بسبب جشعهم وذنوبهم العظيمة وتوحش طبائعهم .

وأقدم هذا الطاغية على شن الحروب الضارية على هذه الشعوب البريئة الطيبة التي لا تؤذي ولا تعتدي على أحد . كان معه ثلاثمائة جندي . وبما أن الأرض هنا لم تكن غنية بالذهب كما هي الحال في المناطق الأخرى فإن هذا الطاغية استخرج الذهب من أجساد هؤلاء المساكين وأرواحهم التي ضحى المسيح من أجلها . فمن لم يميت بسيفه مات باستعباده . كان يقايض بهم ، فيبيع منهم العشرات لقاء شيء من الخل ، أو لحم الخنزير ، أو ملابس ، أو أحصنة ، أو ما يحتاجه هو ورجاله . وكان يقدم خمسين صبية هندية مقابل قنينة زيت أو نبيذ . وكان سعر الفتیان ممثلاً لسعر الفتيات . ولقد رأيت يبيع ابن أمير هندي بقطعة من الجبنة ، ومائة هندي مقابل حصان . لقد مارس هذا الطاغية وحشيته طوال سبع سنين ، فقتل وأفقر واجتاح من غير شفقة أو رحمة .

ولن يصدق أحد كل ما جرى من وحشية وجور في « يوكاتان » . وإنني لا أذكر هنا إلا النزر من الحوادث . كان المسيحيون المجرمون يطاردون الهنود بكلاهم الوحشية ، لا فرق بين رجل أو امرأة أو طفل . كانت هنالك هندية مريضة سمعت نباح الكلاب الوحشية وأدركت أنها لن تنجو من هذه الكلاب التي ستلتهمها هي ورضيعها ، فشنت نفسها وربطت رضيعها بأحد أقدامها ، غير أن الكلاب كانت أسرع منها ، فما لبثت أن أدركتها ومزقت رضيعها . وقد توصل راهب إلى تعميده قبل أن يلفظ الروح !

وقبل أن يغادر الإسبان هذه المملكة سأل أحدهم طفلاً (ابن زعيم قرية) أن يأتي معه لمطاردة الهنود . ورفض الطفل ، فقال له الإسباني هيا معي وإلا فإنني سوف أقطع أذنيك ، وظل الطفل يرفض . عندها استل الإسباني خنجره وقطع أذنيه واحدة بعد الأخرى . وبما أن الصبي ظل مصراً على أن يبقى في قريته فقد جدع له الإسباني أيضاً أنفه وهو يضحك كأنه يقص له شعرة من رأسه . وقد تبجح هذا الإسباني أمام أحد الرهبان بكل وقاحة وقال إنه حبل عدداً كبيراً من النساء ليبيع أطفالهم ويصنع بذلك ثروة .

وذات يوم خرج إسباني لصيد الغزلان والأرانب ، ومعه كلابه السلوقية لكنه لم يصطد شيئاً ، وبدا له أن كلابه جائعة فسرق طفلاً من أمه فقطع أطرافه وأعطى كل كلب حصته . وحين التهمت الكلاب تلك القطع رمى لها بالجسد الصغير لكي تلتهمه . ذلك هو بطش المسيحيين في تلك المناطق وتلك فظائعهم . لقد قسيت قلوبهم فعاملوا الهنود الذين خلقهم الله على صورته . وكفر عن خطاياهم بدمه^(١) . ولسوف أروي ما هو أفظع من ذلك .

ولن أتكلم عن كل الأعمال الوحشية التي ارتكبتها أديعاء المسيحية ، لأن العقل لا يستطيع تصورها ، لكنني أريد أن أنهي حديثي بما يلي :

حين رحل الطغاة من هذه المملكة متوجهين إلى بلاد البيرو الغنية بالثروات المعدنية ، توجه الأب « جاكوب » مع أربعة من رهبانية

(١) هكذا تقول التوراة إن الله خلق الإنسان على صورته الجسدية . وكذلك تزعم النصرانية التاريخية أن المسيح قد صُلب ليفدي الناس من خطاياهم .

القديس « فرانسوا » إلى « يوكاتان » ، من أجل تهدئة روع هذه الشعوب والقيام بحملة تبشيرية تهديهم إلى المسيحية ، أو تهدي من تبقى منهم بعد المجازر التي دامت سبعة أعوام . وأظن أن هؤلاء الرهبان قد وصلوا في عام ١٥٣٤ . وكانوا قد بعثوا ببعض الهنود رسلاً لهم ليسألوا الأهالي عما إذا كانوا يقبلون بقدوم الرهبان إلى أراضيهم . واجتمع الهنود مراراً ، وجمعوا المعلومات حول نوايا هؤلاء الذين يقول بعضهم أنهم « أخوة » ، وبعضهم أنهم « آباء » ، وحاولوا أن يعرفوا ما يختلف به هؤلاء الرهبان عن بقية المسيحيين الإسبان ، وقرروا أخيراً أن يستقبلوهم ، شرط أن يجيئوا وليس معهم إسباني واحد . وفعلاً فقد مضى هؤلاء الرهبان وحدهم إلى « يوكاتان » ، وبشروا بالإنجيل ، وبالنوايا المقدسة للملك إسبانيا تجاه الهنود . ولقد أعجب هؤلاء بهذه العقيدة ، وفرحوا بحديث الرهبان عن ملوك قشتالة ، (ذلك لأن المسيحيين الإسبان لم يبشروا طوال الأعوام السبعة) . وبعد مرور ٤٠ يوماً على تبشير الرهبان أحضر الهنود أصنامهم وسلموها للرهبان ليحرقوها . ثم جاؤوا بأطفالهم الذين يحبونهم أكبر من بؤبؤ أعينهم من أجل أن يهديهم الرهبان إلى المسيحية ويعلموهم . وقاموا بتشييد الكنائس والمعابد . ثم دعوا الرهبان إلى التبشير في مقاطعة أخرى ، وحصل ما لم يحصل من قبل ، على الرغم من أن الإسبان يكذبون ذلك وينكرونه . .

وكان الرهبان ممتلئين بالفرحة والأمل لأن جميع السكان قد آمنوا بالمسيح . لكن أمراً فظيماً قد حصل فجأة ، إذ جاء إلى المنطقة ثلاثون إسبانياً طاغياً يحملون معهم الأصنام التي نهبوها من المقاطعات الأخرى . ونادى زعيمهم رئيس القبيلة الهندية وأمره أن يأخذ هذه

الأصنام وأن يوزعها فيقايض كل صنم بهندي أو هندية ليصيروا عبيداً . وهدده أنه سيعلن عليه الحرب المميتة إذا تمرد . وأذعن رئيس القبيلة . فوزع الأصنام على الأهالي وأمر أتباعه بعبادتها . وأن يقدم كل رب أسرة فرداً منها لقاء الصنم . وأطاع الهنود فكانوا يقدمون طفلاً من أطفالهم مقابل الصنم ، وشاركوا بذلك في هذه التجارة النجسة . وكان أحد هؤلاء اللصوص الإسبان مريضاً على حافة قبره ، وكان يضع أكواماً من هذه الأصنام تحت سريره . وقد طلب من خادمته الهندية أن لا تقبل بمقايسة الصنم بدجاج لأنها أصنام جيدة ثمن كل واحد منها عبد ، على الأقل .

فليتأمل المرء في جدوى مجيء الإسبان إلى بلاد الهند . وهل عادت بالفائدة على الإسبان . وليتأمل هذه النماذج المسيحية التي جاءت وكيف عبدت ربها وزرعت بذرة الإيمان في قلوب هذه الشعوب . ليتأمل المرء ما إذا كانت جريمة الإسبان أخف من جريمة الذي صنع عجولين من ذهب ليعبدهما الشعب^(١) . وليتأمل ما إذا كانت جريمة الإسبان مماثلة لجريمة يهوذا^(٢) . تلك هي أعمال الإسبان في الهند وتلك هي صنائعهم ، أولئك الذين يركضون وراء الذهب ، ويتعطشون له ، أولئك الذين باعوا المسيح وأنكروه وما زالوا يبيعونه وينكروه .

وحين وجد الهنود أن ما وعدهم به الرهبان ليس إلا كذباً ، وحين

(١) الشعب بالمعنى المسيحي اللاهوتي لا يعني إلا اليهود .

(٢) يهوذا ، هو الذي دل الرومان على المسيح وسبب تلك النهاية التي تقول بها النصرانية التاريخية .

وجدوا أن الإسبان أنفسهم يبيعونهم الأصنام ويحضرونها من بلادٍ أخرى ، بينما سلموا أصنامهم بأنفسهم إلى الرهبان ليحرقوها ويعبدوا إلهًا واحدًا ، حين رأى الهنود كل ذلك بأعينهم ثاروا جميعاً على الرهبان ، وجاء زعماءهم إليهم وقالوا لهم : لماذا خدعتمونا وأكدتم لنا أن المسيحيين لن يدخلوا بلادنا بعد اليوم ؟ لماذا أحرقتم آلهتنا ثم جاء مسيحيوكم إلينا ليبعونا هذه الآلهة التي أحضروها من بلاد هندية أخرى ؟ هل تنكرون آلهتنا وتؤمنون بآلهة البلاد الأخرى ؟ .

وحاول الرهبان أن يهدئوا من روع زعماء الهنود ، لكنهم لم يستطيعوا الإجابة على أسئلتهم . ثم ذهبوا إلى زعماء الإسبان الذين أحضروا الأصنام وباعوها وأخبروهم بالأضرار التي ألحقوها بالمسيحية ، فلم يصغ الإسبان إلى كلام الرهبان . أمام كل ذلك قرر الهنود قتل الرهبان لكن هؤلاء هربوا تحت جناح الليل ، ثم عادوا بعد أن هدأت نائرة الهنود ، وأخبروهم أنهم غير مسؤولين عن مجيء الإسبان . لكن الإسبان ظلوا هناك يعيشون فساداً وآثاماً برغم استعطاف الرهبان لهم . ولم يستطع الرهبان متابعة تبشيرهم بين الهنود بسبب جرائم الإسبان . ولذلك قرروا مغادرة « يوكاتان » نهائياً قبل أن يثور عليهم الهنود من جديد . بذلك تخلوا عن هذه المملكة وتركوها من غير نور المسيحية . وهكذا ظلت شعوبها في جهلها وبؤسها ، وضمن الرهبان على الهنود بنعمة « البشارة » وحرموهم من معرفة الله ، تلك المعرفة التي كانوا يتعطشون إليها ، كأنهم كفوا بذلك عن سقاية زرع كانوا قد بذروه حديثاً . كل ذلك جراء شرور الإسبان وآثامهم .

عن خراج « سائتا مرتا »

كانت أراضي « سائتا مرتا » غنية بالذهب ، وكان أهلها الهنود بارعين في استخراجهم . من أجل ذلك لم يتوقف الإسبان الطغاة عن الإغارة على هذه المناطق بسفنهم لنهبها وسرقة أهلها واغتصاب ما يمتلكون من ذهب . كانوا يعودون إلى سفنهم سريعاً .

ولقد فعلوا ذلك منذ عام ١٤٩٩ حتى عام ١٥٤٢ ، وذبحوا مئات الآلاف من شعوبها . وفي ١٥٢٣ قرر بعض هؤلاء الطغاة أن يسكنوا في هذه المنطقة . وبما أن الأراضي غنية كما أسلفت فقد تعاور عليها الطغاة . وكانت كلما دخلت أمة لعنت أختها ، وفاقتها في ارتكاب الفظائع .

في عام ١٥٢٩ جاء طاغية أسوأ من أسلافه . لم يكن يعرف الخوف من الله ، أو الرأفة بالعباد . لقد نهب كنوزاً هائلة ، ثم مات قتلاً على يد طاغية آخر استولى على كنوزه . وتوغل الطاغية الجديد ورجاله في البلاد ، واجتاح وقتل وعذب حتى جمع أكثر ما استطاع تجميعه من الذهب . وفي ذلك العام أخلى منطقة تزيد مساحتها على ٤٠٠ فرسخ من أهلها .

ووالله لو أنني اضطررت إلى أن أصف وأفصل في وصفي آثام
الإسبان ومذابحهم وعسفهم وخطاياهم وكفرهم في هذه المملكة
وحدها ، وإبادتهم هذه الشعوب الآمنة البريئة لكتبت مجلدات كبيرة
جداً . لكنني أكتفي بالاستشهاد من رسالة طويلة وجهها مطران
« سانتا مرتا » إلى مولانا ملك قشتالة بتاريخ ٢٠ أيار / مايو ١٥٤١ :

« يا قيصرنا المقدس . إن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ هذه الأراضي
هي أن ينتزعها جلالتك من سلطة الآباء المشوهين ، وأن يهبها زوجاً
يعاشرها بإحسان تستأهله وتستحقه . إن ذلك يجب أن يتم بسرعة ،
وإلا فإنها ستباد عن بكرة أبيها ، لأن الإسبان يستنزفونها ويستهلكونها
بضراوة . . إلخ » .

ويقول المطران في مكان آخر من الرسالة :

« لسوف يرى جلالتكم رأي العين أن من يحكمون هنا يستحقون
انتزاع السلطة منهم لكي ترتاح البلاد من آلامها . أما إذا طال الأمر
فإن داءها سيصبح عضالاً . لسوف يرى جلالتكم رأي العين أن
الشياطين هي التي تحكم هنا وليس المسيحيين . إن الخارجين على
قانون الله والملك هم الذين يمثلونكم هنا . والحق أقول يا قيصرنا أن
أكبر عائق للسلام مع الهنود وأمام معرفتهم ديننا هو وحشية المسيحيين
وقسوتهم على هؤلاء المسالمين . لقد صار الهنود يجمحون ويجنون كلما
ذكرت أمامهم كلمة « المسيحي » ، وصاروا ينادوننا باسم
« Yares » وهي كلمة من لغتهم تعني « الشياطين » . ولا شك في
أنهم على حق لأن الأعمال التي يرتكبها المسيحيون ليست بأعمال
مسيحيين ولا أفعال بشر وهبهم الله العقل . إنها فعل الشياطين . وقد

أدى ذلك إلى أن الهنود الذين أوذوا في قلوبهم وأجسادهم كل هذا الأذى ظنوا أن سبب ذلك هو الدين المسيحي والإله المسيحي والملك المسيحي . وقد صار إقناعهم بغير ذلك كمن يريد أن يفرغ البحر من مائه ، بل صارت مناسبة يسخرون فيها من المسيح ومن دينه . إن الهنود المحاربين حين يرون ما حل بالهنود المستسلمين يفضلون الإنتحار على الموت بين يدي الإسبان . وإني أعرف ذلك عن تجربة يا قيصرنا الغالب أبداً » .

ويضيف مطران « سانتا مرتا » في مكانٍ آخر قائلاً :

« إن لجلالتكم هنا خدماً أكثر مما تتخيلون وتتصورون ، فليس هناك جندي واحد من الموجودين هنا لا يقول علناً إنه إنما ينهب ويخرب من أجل خدمة جلالتكم . وحين يسرق الذهب يزعم أن بعضاً منه لجلالتكم . لكل ذلك يا صاحب الجلالة يا قيصرنا المسيحي لا بد من إفهام هؤلاء الخدم ببعض العقوبات الصارمة أنكم لا تكونون مخدمين إذا لم يخدم الله » .

إن رسالة مطران سانتا مرتا تظهر بوضوح ما يجري في هذه المناطق التعيسة وضد هذه الشعوب البريئة . إن المطران يطلق اسم المحاربين على أولئك الهنود الذين فروا إلى الغابات هرباً من المذابح التي نظمها الإسبان . ويطلق اسم المسالمين على أولئك الذين نجوا من المذابح الكثيرة واستسلموا لرق الإسبان الجائر الظالم . حتى هؤلاء يموتون قتلاً بعد حياة العبودية . لقد استنزف الإسبان هنود هذه المنطقة بتحميلهم الأثقال على كواهلهم في الجبال الوعرة . وحين يسقط هندي خائراً من شدة الإرهاق يكسر الإسباني أسنانه بمقبض سيفه ، فينهض المسكين

وهو يتلوى الماء ، ويصيح : اقتلني حالاً لأنتهي من عذابكم أيها الشياطين . يقول ذلك ، ويضع يديه على قلبه ، ويلفظ الروح .

وآه لو كنت أستطيع أن أعرض عليكم معشار معشار المصائب والكوارث التي واجهها هؤلاء الأبرياء على يد الإسبان المسيحيين . ولعل الله هو الذي يفهم من سلمت عقولهم ومن يستطيعون الإنقاذ .

عن ساحل اللؤلؤ ، وباريا ، وجزيرة ترينيداد

ارتكب الإسبان فتكاً هائلاً ودماراً عظيماً في المنطقة الممتدة بين ساحل « باريا » وخليج « فنزويلا » ، أي على مائتي فرسخ تقريباً . وقد نهبوا هذه المنطقة وباعوا سكانها عبيداً للخارج . كانوا يأخذونهم بالخيالة ، فقد كان الهنود يستقبلون الإسبان بترحاب كأنهم من أهلهم أو أولادهم ، ويعطونهم ما يستطيعون ويخدمونهم على أفضل وجه . والحق أنه ليصعب عليّ أن أروي ما ارتكبه الإسبان على هذا الساحل من ظلم وإذلال وجور ، وذلك منذ عام ١٥١٠ حتى اليوم . إنني سوف أتكلم عن مثلين أو ثلاثة أمثلة ، مما ارتكبه الإسبان هناك من فظاعات تستحق عذاب جهنم وبئس المصير .

إن جزيرة ترينيداد^(١) أكبر من صقلية . وهي جزيرة كانت سعيدة

(١) سرعان ما كان الإسبان يطلقون على هذه المناطق أسماء قديسيهم أو عقائدهم المسيحية . وترينيداد تعني « الثالث المقدس » . أما الاسم الأصلي للجزيرة فقد ابتلعه الثالث المقدس .

هائلة مطمئنة . إنها تلتقي باليابسة عند منطقة باريا . وقد كان أهلها من أسعد سكان بلاد الهند . في ١٥١٦ توجه إليها لص إسباني بصحبة ستين لصاً من الشاطرين ، وقالوا للهنود إنهم جاؤوا إلى الجزيرة ليسكنوها ويعيشوا مع أهلها . واستقبلهم الهنود كعادتهم كأنهم أولادهم من لحمهم ودمهم ، وخدموهم بكثير من العطف والسعادة . كانوا يأتونهم يومياً بطعام أكثر مما يحتاجون إليه . كان ذلك موقف الهنود في العالم الجديد [القارة الأميركية] فقد كانوا يعطونهم بسخاء وكرم . وقد شيد الهنود لهؤلاء منزلاً كبيراً من خشب زعموا أنهم يريدون أن يسكنوا فيه . وكانت تلك وسيلتهم إلى ما كانوا يريدون ، وإلى ما فعلوه بعد ذلك . فما أن وضع الهنود القش فوق العوارض وغطوها جيداً (لكي لا يرى من في الداخل من في الخارج) هرع الإسبان وطلبوا إلى كثير من الهنود أن يدخلوا بحجة الإسراع في إنهاء المنزل . ثم توزع الإسبان داخل المنزل وخارجه . وكانوا مسلحين مستعدين للإنقضاض على كل هندي تسول له نفسه بالخروج . أما الذين كانوا في الداخل من الإسبان فقد سلوا سيوفهم وهددوا الهنود العراة بقتلهم إذا تحركوا ثم أوثقوهم . وحين حاول بعضهم الهرب لاقى مصرعه وتمزق إرباً إرباً . ثم هرع بعض هنود القرية لما علموا بالأمر والتجأوا إلى منزل كبير في القرية ، حاملين معهم أقواسهم ونبالهم للدفاع عن أنفسهم . لكن الإسبان طوقوا المنزل وأشعلوا فيه النار . كان فيه مائة أو مائتان ، وقد أحرقتهم الإسبان أحياء . أما عن الهنود الموثقين في المنزل فقد ساقوهم إلى سفينتهم وأبحروا بهم إلى سان خوان حيث باعوا نصفهم عبيداً ، ثم إلى الجزيرة الإسبانية حيث باعوا النصف الثاني ، وكان عددهم قرابة المائتين . وحين لمت القبطان في

جزيرة خوان على ما فعله أجنبي : يا سيدي ، إن من أرسلني إلى هناك أمرني أن آتي بالهنود سلماً أو حرباً . واعترف لي هذا الطاغية أنه لم يعرف في حياته أمه أو أباه ، وإن الهنود في جزيرة ترينيداد كانوا بمثابة الأم والأب . لقد اعترف بذلك ، ولن يغفر الله له خطايا . هكذا استعبد الإسبان الكثير من هنود هذه الجزيرة .

ومرة ، قررنا نحن آباء « رهبانية القديس دومينيك » أن نبشر في هذه الشعوب المفتقرة إلى نور العقيدة المسيحية . وتوجهنا إليها لننقذ أرواحها . وأرسلنا واحداً من رهبانيتنا ليكتشف البلد قبلنا ويلتقي بسكانها ، ويبحث عن أماكن مناسبة لتشييد الأديرة فيها . وكان رجل لاهوت شهيراً ويصحبه راهب آخر . وحين وصولهما استقبلهما الهنود كأنهما ملائكة من السماء وأصغوا إلى تبشيرهما بكثير من الود واليقظة . كانا يبشران بالرموز لأن الهنود لا يفهمون لغتنا . وبعد أن غادر المركب الذي حمل الراهبين إلى الجزيرة أرسى مركب آخر وترجل منه إسبان مستعدون للقتل والذبح . ثم استدعوا شريف الجزيرة الهندي الذي كان قد اعتنق المسيحية وصار اسمه « دون ألفونسو » بفضل الراهبين . ولا بد من القول أن الهنود يصرون على تبديل أسماهم إلى أسماء مسيحية عندما يعتنقون الدين المسيحي .

وإذن ، فبمجرد أن وصل هؤلاء الأسبان استدعوا دون ألفونسو وقالوا له إنهم يريدون أن يحتفلوا به هو وامراته وحاشيته على مركبهم . وصعد الشريف [دون ألفونسو] مع امرأته وحاشيته (كانوا ٢٧ هندياً) إلى المركب الذي سرعان ما أبحر بهم إلى الجزيرة الإسبانية حيث باع الإسبان الشريف الهندي ومن معه عبيداً . ولما علم أهالي

« ترينيداد » بما جرى لزعيمهم جن جنونهم وأرادوا قتل الراهبين .
 وخاف الراهبان على حياتهما ، وخافا أن لا تسمع هذه الشعوب بكلام
 الله أبداً إذا قتلا ، فحاولا تهدئة خواطر الهنود وتسكين روعهم . وقالوا
 لهم إنهما سيكتبان إلى الجزيرة الإسبانية ليعود زعيمهم وحاشيته . وقد
 كتبوا أول مرة وثاني مرة وثالث مرة ، واحتجا ، وطالبا عبثاً ، فقد كان
 الإسبان قد وزعوا الهنود بينهم عبيداً . ولم يكن من الهنود بعد طول
 الانتظار إلا أن قتلوا الراهبين ظناً منهم بأنها مسؤولان عما جرى .
 هكذا انتقم الهنود من الاسبان ، عن حق بقتل الراهبين . لم يدرك
 الهنود ، وما زالوا غير مدركين ما بين رجال الدين وبين الإسبان الطغاة
 اللصوص من فرق . لقد مات هذان الراهبان بأيدي الهنود وراحوا
 ضحية الظلم الإسباني الفظ . إنها شهيدان حقيقيان ، ولا شك أنها
 الآن إلى جوار ربها في جنته السعيدة . لقد جاء إلى هذه البلاد من
 أجل التبشير ونشر الإيمان المقدس ، ومن أجل تخليص هذه الأرواح .
 ولقد تجشما المشقات وتحملا العذاب والآلام وأخطار الموت باسم
 المسيح .

ومرة أخرى قتل الهنود راهبين آخرين من رهبانية القديس
 « دومينيك » وراهباً من رهبانية « الفرنسيسكان » . وكنتُ شاهداً على
 موتهم . ونجوت بأعجوبة . إن هنالك الكثير مما يجب روايته ومما يروى
 الأفتدة . لقد شهدت أخطاراً وأهوالاً . وإنها لرواية طويلة لا أريد
 الحديث عنها إلا في الوقت المناسب . إن يوم القيامة هو اليوم الذي
 سيثار فيه الله من هذه الشناعات المزيريات في بلاد الهند . تلك التي
 ارتكبتها من يحمل لواء المسيحية .

وكان في هذه المناطق شعب آخر يعيش عند خليج « كوديرا »

وكان زعيمه يسمى « هيغوروتو » وهو اسمه الشخصي واللقب الذي يُطلق على كل زعيم أو شريف هناك . كان طيباً ودوداً ، وكان شعبه مثله يتحلى بالفضائل والحُصَال الحميدة ، إذ كان كل الإسبان الذين يعبرون بهذا الخليج يجدون عندهم حسن الضيافة والرعاية . ولقد أنقذ هذا الزعيم كثيراً من الإسبان حين كانوا يتعرضون للمخاطر . كانوا يأتون إليه ، يقتلهم الجوع فيؤوئهم ويطعمهم ويسقيهم ، ويردهم إلى مآمنهم في جزيرة اللؤلؤ حيث يعيش المسيحيون . وقد كان يستطيع أن يقتلهم دون أن يعلم أحد بذلك ، ولكنه لم يفعل . بل ان الإسبان أطلقوا على بلاد « هيغوروتو » اسم « نزل الراحة العام » . غير أن طاغية إسبانيا قرر الهجوم على هذه البلاد الآمنة المطمئنة ، فتوجه إليها على متن سفينة ، ثم دعا عدداً كبيراً من الهنود أن يصعدوا إليها . وصدق الهنود أنه لن يؤذيهم ، لكنه رحل بهم إلى جزيرة سان خوان وباعهم عبيداً . وكنت قد وصلت آنذاك إلى هذه الجزيرة ، ورأيت ما ارتكبه هذا الظالم بحق هذا الشعب الوداع . حتى الإسبان الطغاة لاموه على ما فعل لأنهم فقدوا ملاذهم و« نزل الراحة » .

وإنني أكرر وأقول إنني لا أروي إلا يسيراً من الآثام والشناعات التي ارتكبتها الإسبان في هذه الأراضي .

لقد ساق الطغاة الظالمون إلى الجزيرة الإسبانية وإلى جزيرة سان خوان أكثر من مليوني هندي بريء أعزل ، التقطوهم على طول ذلك الساحل الذي كان يعج بالبشر . ولقد مات المليونان كلهم بالتعذيب الذي لاقوه أثناء عملهم في المناجم . وإنني لا أذكر هنا العدد الهائل من الأهالي الذين قتلهم المسيحيون على الساحل . إنه لمشهد تنفطر له القلوب حين ترى هذا الساحل الذي كان سعيداً وقد تحول إلى

اسباسب مقفرة .

إنني أعلن حقيقة لا ريب فيها حين أقول أن كل سفينة اسبانية كانت تنقل هنوداً لبيعهم ترمي في البحر بثلاث همولتها على أقل تقدير ، قبل أن تصل إلى مرساها . كان الإسبان يرمون إلى البحر كل هندي ضعيف أو مريض . وكان الهنود يحتضرون في السفن لأن الإسبان كانوا يرفضون إطعامهم والإنفاق عليهم . أما الطعام فكانوا لا يحملون منه إلا ما يكفيهم هم فقط . ولذلك لم يكن يصل من الهنود إلى المرافئ إلا القلة القليلة التي استطاعت أن تصبر على الجوع والعطش . وقد أخبرني أحد هؤلاء الطغاة أنه أبحر مرة من « لوكايس » إلى هذه الجزيرة دون أن يستعين بخريطة أو بوصلة . كان يقتفي جثث الهنود التي أُلقيت بكثرة على طول الطريق بين « لوكايس » وبين الجزيرة الإسبانية ، أي على مسافة ٧٠ فرسخاً .

وقد رأيت ، مرة ، ما يفطر القلوب ويفتت الأكباد . رأيت السفينة حين وصلت إلى الجزيرة ونزل منها الهنود الذين سيُباعون . كان الأطفال والنساء والشيوخ والرجال عراة يتساقطون أرضاً وينهضون ويسقطون من شدة الجوع . بعد ذلك يأتي الإسباني فيُعاملهم كما تعامل النعاج : يفصل الأبناء عن الأطفال ، والزوجات عن أزواجهن ، ويصنع منهم قطعاناً ، كل قطيع من عشر أنفس أو عشرين نفساً . بعد ذلك تجري القرعة لتوزيع هؤلاء المساكين على الإسبان من أصحاب السفن والطغاة واللصوص . وحين يرى أحد الطغاة عجوزاً هندياً بين قطيعه يصرخ غاضباً : هذا العجوز ليذهب إلى جهنم . لماذا تعطوني هذا العجوز ؟ أأدفنه ؟ أأطيبه ؟ هيا اقتلوه . هكذا عامل الإسبان الهنود ، وهكذا نفذوا وصايا الرب وحب

القريب الذي أوصت به المسيحية ودعا إليه الأنبياء .

ولدى الإسبان نوعٌ آخر من الطغيان لا يوجد له مثيل في هذا القرن ، ولا يمكن أن يجاريه أي عمل جهنمي ، بما في ذلك تسخير الهنود لاستخراج الذهب من المناجم على ما في هذا العمل من قسوة ووحشية . إنني سأحدث عن تسخير الهنود في صيد اللؤلؤ . كان الإسبان يسكون بشعور الهنود ويلقون بهم في البحر من الفجر إلى النجر ، ويجبرونهم على أن يبقوا معظم هذا الوقت تحت المياه يصطادون المحار . ثم يملأون به شباكهم الصغيرة ويصعدون . يصعدون ليتنفسوا فقط . ويوجد إلى جانبهم عادة جلابد إسباني ينتظر الغواص الهندي على متن زورقه ، حتى إذا وجد أن الهندي قد أمضى فوق الماء فترة أطول مما يلزم لتنفسه يمسه مجدداً من شعره ويرميه إلى الأعماق .

وفي الليل كانوا يربطونهم إلى الأرض ويوثقونهم بها حتى لا يهربوا . وكان الهندي المسكين في معظم الأحيان يغوص لصيد اللؤلؤ فيصطاده سمك القرش والحيتان الكبيرة ، وهي حيوانات بحرية فتاكة كانت تلتهمهم . فليحكم المرء بنفسه إذا كان الإسبان الذين يكرهون الهنود على صيد اللؤلؤ يتبعون تعاليم الله ؟ كانوا يجبرون الهنود على الموت جسداً وروحاً ، ذلك لأن هؤلاء المساكين يلفظون الروح بلا إيمان ولا قربان مقدس . كل ذلك يقوم به الإسبان جشعاً ، فهم يقتلون الهنود بأعداد كبيرة جداً ، وخلال فترة قصيرة . فهل يعقل أن يعيش الإنسان فترة طويلة تحت الماء بدون تنفس ؟ إن برودة المياه تتغلغل في أجسادهم .

أما من لم يميت تحت المياه فإنه يموت فوق البر بعد يوم أو يومين وهو يبصق الدم بغزارة ، أو يُصاب بالإسهال الحاد لكثرة ما ابتلع من تلك المياه الباردة. إن شعورهم الفاحمة السوداء تبدو كأنها محروقة أو أشبه بوبر ذئاب البحر . بل ينبت في ظهورهم ما يشبه ملح البارود ، وتتحول هذه الكائنات البشرية المسكينة إلى وحوش ذات طبيعة بشرية ، ويخيل إليك وأنت تنظر إليها أنها كائنات من عالمٍ آخر . لقد فتك الإسبان بهذا الاستعباد الجهنمي بكل هنود جزر « لوكايس » حين ابتدأوا بتجارة اللؤلؤ . كانوا يبيعون الهندي بخمسين أو مائة قشالية في الأسواق العامة . والمعروف أن هنود هذه الجزر ماهرون في السباحة . أما حين مات كثير منهم بسبب صيد اللؤلؤ فقد استورد الإسبان المجرمون أعداداً كبيرة من هنود الجزر المجاورة لتلك الغاية .

عن نهر يايا باري

يجري في منطقة « باري » نهر يُسمى بـ « يايا باري » ، وذلك على مدى مائتي فرسخ داخل الياسة . وفي عام ١٥٢٩ جاء طاغية جبار إلى منابع هذا النهر يصحبه أكثر من ٤٠٠ رجل ، وارتكب جرائم عديدة ، فأحرق كثيراً من البشر أحياء ، وذبح بشفرة السيف عدداً كبيراً من الأبرياء الذين كانوا يعيشون في تلك المنطقة لا يؤذون أحداً ولا يكونون شراً لأحد . لقد أربب الأهالي وهجرهم من بلادهم التي لم يتركها إلا قاعاً صافصفاً . ثم توفاه الله ، وتفرقت حملته . لكن طغاة أقى منه قلباً جاءوا بعده فبزوه جبروتاً وآثاماً . وما زالوا هنالك إلى الآن يعيشون فساداً وإجراماً ، ويرسلون إلى جهنم أنفسهم فداها المسيح بدمه .

حول المناطق البرية والساحلية المسماة بفلوريدا

في عام ١٥١٠ أو ١٥١١ وصل ثلاثة من الطغاة إلى هذه المناطق فارتكبوا فظاعات الآخرين ، لعلمهم ينالون ما لا يستحقونه ، متوسلين إلى ذلك إهراق الدم والفتك بالناس . وقد مات ثلاثتهم شر ميتة ، وانهارت عليهم البيوت التي شيدها فوق دماء البشر . كنت أعرفهم جميعاً . ولقد محيت ذكراهم من على وجه الأرض ، ويا ليتهم لم يعيشوا أبداً ، فقد تركوا وراءهم مناطق ترتجف خوفاً إذا ذكرت أسماؤهم ، ويعمها القرف والهول مما سفكوه من دماء . إن أرواحهم قبضت قبل أن يذبحوا المزيد من الهنود ، لكن طاغية رابعاً وصل إلى فلوريدا في عام ١٥٣٨ مع عدد من رجاله . ولم يسمع أحد بشيء من أخباره منذ أكثر من ثلاث سنوات ، فهو لا يظهر للعيان ، لكنني متأكد من أنه ارتكب المذابح لحظة وصوله ، ثم اختفى خوفاً من الانتقام . أما إذا كان حياً فإنني أشفق من الخوف على أهالي تلك البلاد لأنه من أكثر الطغاة خبثاً وقسوة . ولقد قام رجاله بمذابح في عدد من بلاد الهند وفتكوا وأحرقوا . ولقد علمت بعد كتابة ما كتبت

أنه توفي منذ فترة ، وعرفت مدى الجرائم العجيبة التي اقترفها هو وصحبه الذين لا يملكون قلوباً . وهذا يؤكد ما قلته من قبل ، فكلمنا طال زمن الفتح الإسباني زادت وحشية الإسبان وقسوة قلوبهم ، فبطشوا أكثر ونحروا المزيد .

وآه .. إنني مللت من سرد كل هذا الركام من الجرائم ، ومن وصف هذه السلسلة الطويلة من المذابح ، لأنني لا أتحدث عن أفعال بشر ، بل عن أفعال بهائم تعيش في الغابات .

لقد ارتكب هذا الطاغية المذابح في فلوريدا من أجل التخويف والإرهاب ، وتفنن في التعذيب ، فكان يربط الهنود وهم يعملون ، عشرات عشرات ، بحبل واحد . فإذا سقط أحدهم من الإرهاق قطع رأسه وترك الجسد على الأرض ، لكي لا يضطر إلى فك الحبل .

وعلمت أن الإسبان دخلوا قرية فاستقبلهم أهلها بالترحاب ، ثم أطعموهم ، وخصصوا لهم ٦٠٠ هندي لخدمتهم وحمل أثقالهم . غير أن الإسبان ، ولم يكادوا يرتاحون من وعثاء السفر ، بدأوا بتقطيع الرؤوس . ولما رأوا بعض الهنود حذراً منهم ذبحوهم بالجملة ، رجالاً ونساء وأطفالاً . وأحضر الطاغية (كما قيل لي) مائتي هندي ، وراح يتسلى بهم : منهم من جدد أنفه ، ومنهم من قطع شفته السفلى أو شق فكه . كان يتسلى بتغيير ملامح الوجه .. ثم أرسلهم جميعاً إلى أهاليهم ، بلا أنوف أو بلا شفاه . أو بلا آذان ، فعادوا يسيلون دماً . هكذا عادوا ومعهم « بشارة » المسيح ، وبشرى مجيئ المبشرين المسيحيين القادمين لنشر الإيمان الكاثوليكي وتعميد الهنود . وليخمن القارئ مدى ما يكنه الهنود من حب للمسيحيين . وأي صورة

يعرفونها عن ربهم ودينهم .

وآه كم هي كبيرة وعجيبة تلك الجرائم التي ارتكبوها باسم
التبشير .

عن « ريو ديلا بلاتا »

ابتداء من ١٥٢٢ اجتاح قادة إسبان منطقة « ريو ديلا بلاتا » أربع مرات . وكان في هذه المنطقة ممالك عظيمة وشعوب وهبها الله الحكمة والعقل . إننا نعرف أنهم ارتكبوا فيها المذابح المريعة وأصابوها بالأضرار الفادحة . وبما أنها منطقة نائية معزولة عن باقي بلاد الهند فإننا لا نملك ما نضيفه على ما جرى في المناطق الأخرى . غير أننا لا نشك في أنهم ما زالوا يرتكبون إلى الآن الفظائع التي ارتكبوها في أماكن أخرى فهم ملة واحدة مجرمة عاثت فساداً في كل هذه البلاد . وهم جميعاً يريدون الثراء والسيادة التي لا يستطيعونها إلا بالذبح والقتل والنهب .

ولقد علمت أخيراً أنهم أفنوا مساحات هائلة وممالك شاسعة من هذه المنطقة ، بل ارتكبوا فيها مذابح أفظع مما ارتكبه في غيرها من البلاد ، نظراً لنأيها وبعدها عن إسبانيا . ولقد عاشوا هناك بلا نظام ولا عدالة . أقول ذلك وأنا أعلم أن كل بلاد الهند لم تعرف نظاماً أو عدالة [مع وصول الإسبان] . وقد علمت أنهم قتلوا خمسة آلاف نفس بحد السيف حين رفض الهنود تقديم الطعام لهم . لا عن بخل ، بل عن خوف، فقد سبق أن ذبحوا عشرات الألوف من

أهاليهم . ورويت لي حادثة أخرى عن هنود استدعاهم الإسبان لخدمتهم فلم يسرعوا في المجيء ، أو أنهم تأخروا في الوصول ، فجاء إليهم الإسبان لقتلهم . واختبأ الهنود وصاروا يصيحون : لقد جئناكم مسالين لخدمتكم فما أنتم تقتلوننا . لتبق دماؤنا على هذه الجدران تشهد على موتنا دون سبب ، وتشهد على جوركم . وإنه لكلام يذكر ويستدعي الأسف .

عن ممالك عظيمة ومناطق كبيرة من البيرو

وفي عام ١٥٣١ توجه طاغية آخر ، مع فرقة من جنوده ، إلى ممالك البيرو ، وفعل فيها ما فعله الطغاة الآخرون في الممالك الهندية الباقية . كان من أكثر الطغاة إجراماً . لم يعرف قلبه الإيمان ، وهو منكر لكل قانون ، بشرياً أو دينياً . ولهذا فقد أفرط هذا المجرم في الفظائع والمذابح وفي السلب والنهب ، فدمر القرى وأهان أهلها وقتلهم . وكان سبباً في الكثير مما أصاب هذه المناطق من مظالم . وإنني على يقين من أن أحداً لن يتوصل إلى سرد ما حصل أو توضيحه ، حتى يوم القيامة يوم يُعرف المجرمون بسيهامهم . ولقد أردت أن أصف بعض هذه الفظائع ، غير أنني عاجز عن ذلك .

كان هذا المجرم قد سرق الذهب من هذه الشعوب . وفي جزيرة « بوما » القريبة من هذه المقاطعات ، وهي مملكة جميلة سعيدة عامرة بالسكان ، رحب الشعب وملكه بهذا المجرم وجنوده ، واستقبلهم كأنهم ملائكة أنزلت عليه من السماء . وفي ستة أشهر التهم الإسبان كل ما ادخره الهنود من أغذية . ومع ذلك فقد كشف الهنود عن إهراء القمح حيث يخبئونه إلى أيام القحط والجفاف ، ثم قدموه للإسبان ، وهم ينتحبون : إنه لكم . وشكر لهم الإسبان كرمهم بأن ذبحوا من

استطاعوا منهم واستعبدوا الآخرين ، ثم تركوا المملكة خاوية من أهلها .

ومن هناك انطلق الإسبان إلى منطقة « تومبالا » في اليايسة فقتلوا ودمروا ما استطاعوا . وحين شاهدوا الناس يهربون من فظائعهم ، قالوا إنهم يتمردون على الملك ، وإنهم ليسوا من أتباعه بعد اليوم . وكان هذا الطاغية حاذقاً يطلب المزيد من الذهب والفضة منهم ، وحين لا يبقى لديهم شيء منه يضافهم ويقول إنهم صاروا أهلاً بأن يكونوا أتباعاً لملك إسباني . ثم يأمر جنوده بأن ينفخوا في البوق . هكذا يصدق الهنود أنهم دفعوا الثمن اللازم لكي يصيروا في رعاية ملك إسبانيا وحمايته .

بعد بضعة أيام جاء أمبراطور هذه الممالك كلها واسمه « أتاهوالبا » ، ومعه حاشيته ، وهم بشر ليس عليهم إلا ما يستر عوراتهم ، ويحملون أسلحة تضحك الأطفال . ولم يكن هذا الأمبراطور يعرف بعد ، كيف تقطع السيوف ، أو كيف تجرح الرماح ، أو كيف تعدو الخيول . ولم يكن يعلم من هم الإسبان الذين يهجمون على الشياطين ، إذا عرفوا أن لديها ذهباً ، وينهبونه منها . وصل هذا الأمبراطور الساذج إلى حيث يوجد الإسبان ، وقال براءة : أين هم الإسبان ؟ ليتفضلو ويمثلوا أمامي . إنني لن أتحرك من هنا إلى أن يعوضني الاسبان عما قتلوه من أتباعي ، وما أحرقوه من قرابي ، وما نهبوه من ثروات شعبي .

وجاءه الإسبان ، لا ليمثلوا أمامه ، بل ليعطوه درساً في وحشيتهم . وراحوا يقتلون ما استطاعوا من جماعته . ثم قبضوا

عليه ، وسجنوه ، وهو ما يزال على محفته الملكية . بعد ذلك طالبوه بفدية فوعدهم بما يعادل أربعة ملايين قشتالية [القشتالية عملة ذهبية تعادل ٤,٦ غرامات] لكنه أعطاهم ما يعادل ١٥ مليوناً ، فوعدهم بإطلاق سراحه ، ولم يفوا بوعدهم طبعاً . ومتى صدق الإسبان بوعودهم للهنود ؟ .

وأعلن الإسبان أنهم سيحرقونه حياً ، لكن أصواتاً إسبانية نادت بخنقه ثم حرقه . وحين علم الأمبراطور بمصيره قال للإسبان : ولماذا تحرقوني ؟ ماذا فعلت لكم ؟ ألم تعدوني بأنكم سوف تطلقون سراحي إذا ما أعطيتكم ذهباً ؟ ألم أعطكم أكثر مما وعدتكم ؟ لماذا لا ترسلوني إلى ملككم في إسبانيا ؟

لكن أسئلته لم تلاقِ إلا جواباً واحداً : الخنق والحرق .

ولسوف أذكر هنا بعض الحوادث التي ارتكبتها أدياء المسيحية والتي نفذوها من أجل إبادة هذه الشعوب . وأنقل هنا رواية أحد الرهبان من رهبانية القديس فرانسوا . وهي رواية موقعة باسمه ومكتوبة بخط يده . وقد أرسل بنسخ منها إلى ممالك قشتالة . وهذه مقاطع من النسخة التي أملكها وقد جاء فيها :

« أنا الراهب الأخ « ماركوس دونيزا » من رهبانية القديس « فرانسوا » ، كنت مع أول رهبان دخلوا إلى هذه المناطق مع المسيحيين الأوائل . وإني أعلن بأنني أشهد شهادة حقيقية على بعض ما رأيته بعيني في هذه البلاد ، خاصة مشاهد الغزو والطريقة التي عامل بها الإسبان سكان البلاد .

« إنني شاهدت بعيني ، وفهمت من تجربتي أن هنود « البيرو » من أكثر الهنود تسامحاً . ولقد تحالفوا في البداية مع المسيحيين وصادقوهم . ورأيتهم يعطون المسيحيين كثيراً من الذهب والفضة والأحجار الكريمة . كانوا يعطونهم كل ما يملكونه ، ويخدمونهم على أفضل وجه . لم يكن الهنود في يومٍ من الأيام محاربيين أو مستعدين للحرب بل كانوا مسلمين آمنين إلى أن استفزهم الإسبان بمعاملتهم السيئة وفظاظتهم .

« وأود أن أصرح بما كنت شاهداً عليه : حين دخل الإسبان إلى أراضي هؤلاء الهنود (في البيرو) أعطاهم الزعيم « أتاهوالبا » من الذهب ما قيمته مليوناً قشتالية وكل ما يملكه من الأراضي ، وبدون مقاومة . عندها ، وبدون سبب أحرق الإسبان الزعيم « أتاهوالبا » ، ثم أحرقوا قبطانه العام حياً ، واسمه « كوشيلماكا » . وكان « كوشيلماكا » قد جاء ليرحب بالحاكم [الإسباني] يصحبه زعماء آخرون . وبعد أيام أحرق الإسبان « شامبا » وهو زعيم مرموق آخر من مقاطعة « كويتو » . علماً بأنه لم يؤذيم ولم يذنب ذنباً . كذلك أحرقوا ، ظلماً وتعسفاً ، « شابرا » زعيم الكنتاريين ، وأحرقوا أقدام أحد زعماء « كويتو » الكبار ، وعذبوه طويلاً ليعترف لهم بمكان الذهب . وكان المسكين يجهل كل شيء عن هذا الأمر . وفي « كويتو » نفسها أحرق الإسبان « كوزوبانغا » حاكم كل مناطق « كويتو » لأنه رفض تسليم كل ما لديه من ذهب ، كما أحرقوا معه كثيراً من شيوخ القبائل . ولقد قيل لي بعد ذلك أن الإسبان قد خططوا أن لا يبقوا زعيماً هندياً على قيد الحياة .

« وإنني أصرح أيضاً بأن الإسبان قد جمعوا عدداً كبيراً من الهنود

وسجنوهم داخل منازل ثلاثة كبيرة حشروهم فيها ثم أحرقوهم دون أي سبب . ولقد استطاع أحد الرهبان أن « يستخرج » صبياً من النار ، لكن إسبانياً آخر هجم عليه وسحب الطفل من يديه ورماه في اللهب حيث صار رماداً مع الآخرين . وفي ذلك النهار توفي هذا الإسباني فجأة وهو على الطريق ، ورفضت أن أدفنه . إني أصرح أيضاً بأنني شاهدت الاسبان يقطعون أيدي الهنود والهنديات ، من غير سبب ، ويجدعون أنوفهم ويقطعون آذانهم . ورأيت الاسبان يقومون بصيد نادر ، إذ كانت كلابهم السلوقية تطارد الهنود وتلتهمهم ، أو أن الإسبان أنفسهم يرمون بالهندي إلى كلابهم السلوقية لتأكله . كما رأيت الإسبان ينتزعون الرضيع من بين يدي أمه ، ويلوحون به في الهواء ، ثم يقذفونه إلى أبعد ما يستطيعون . رأيت تعسفاً شديداً وجوراً كثيراً تهلع له القلوب . ولم أنجح في منعهم عن حرق الهنود . وإني أعلن أمام الله وضميري أن هنود البيرو لم يتمردوا على الإسبان إلا لأن هؤلاء عذبوهم أشد العذاب .

« وإني أصرح أيضاً ، وفقاً لحكايات الهنود ، أن الذهب الدفين أكثر من الذهب المرئي ، وأن الهنود لم يريدوا الكشف عنه بسبب ما تعرضوا له من ظلم . لقد ابتذل الإسبان الله بما ارتكبه من فظائع ، وأهانوا [الملكة] جلالتها بما عملوا من فساد في هذه الأرض التي تستطيع أن تطعم كل قشتالة . . . » .

هذا هو كلام الراهب بالحرف . وقد وقع عليه مطران مكسيكو وشهد على صحة ما صرح به الأخ « ماركوس » . وما قاله هذا الراهب حصل فعلاً بعد تسعة أشهر أو عشرة أشهر من « الفتح » حين كان الإسبان قلة . أما حين سمع الإسبان بأخبار الذهب فأسرع أربعة

آلاف أو خمسة آلاف منهم إلى بلاد الهند واجتاحوا منطقة تتجاوز ٧٠٠ فرسخ ، وراحوا يسرقون ويقتلون . ومنذ تلك الفترة حتى اليوم أباد الإسبان بشراً أكثر مما ذكرت بألف مرة . لقد أريق دم جزء كبير من الإنسانية دون خوف من الله أو الملك . وقتل الإسبان في هذه الممالك (في البيرو) أكثر من أربعة ملايين نسمة ، وما زالوا . وقبل بضعة أيام عذبوا بعيدان القصب المبري ملكة عظيمة ثم قتلوها . وكانت هذه الملكة زوجة الملك « الينغ » الذي يحكم كل هذه المناطق وحين هرب الملك من وجه الاسبان عذبوا زوجته وقتلوها .

فهرس

- مقدمة الناشر ٥
مقدمة المؤلف ،
من المطران برتولومي دي لاس كازاس
إلى سمو أمير بلاد إسبانيا المعظم ١٧
رواية موجزة جداً لدمار بلاد الهند ٢١
● عن الجزيرة الإسبانية ٢٧
● عن الممالك التي كانت في الجزيرة الإسبانية ٣١
● عن جزيرة كوبا ٣٥
● غزو اليابسة ٣٩
● عن مقاطعة نيكاراغوا ٤٣
● عن ما يُسمى بإسبانيا الجديدة ٤٧
● عن مملكة غواتيمالا ٥٥
● عن إسبانيا الجديدة في بانوكو وجاليسكو ٥٩
● عن مملكة « يوكاتان » ٦٣
● عن خراج « سانتا مرتا » ٦٩
● عن ساحل اللؤلؤ ، وباريا ، وجزيرة ترينيداد ٧٣
● عن نهر يايا باري ٨١
● حول المناطق البرية والساحلية المسماة بفلوريدا ٨٣
● عن « ريوديلا بلاتا » ٨٧
● عن ممالك عظيمة ومناطق كبيرة من البيرو ٨٩
٩٥